جمهورية مصر العربية
وزارة الأوقاف
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

دراسات إسلامية
سلسلة تصدر
فى منتصف كل شهر عربى

أوائل المؤلفين فى السيرة النبوية

أ. د. عبد الشافى محمد عبد اللطيف

العدد : (١١٤)

القاهـرة

ذو الحجة ١٤٢٥هـ - فبراير ٢٠٠٥م

يشرف على إصدارها

الدكتور/ **محمود حمدى زقزوق**

وزير الأوقاف

ورئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

الدكتور/ **عبدالصبور مرزوق**

نائب رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

النبى محمد بن عبد الله – صلوات الله وسلامه عليه – هو صفوة الله من خلقه ، بل هو صفوة الصفوة ، فالأنبياء – عليهم جميعًا أفضل الصلاة والسلام – هم المصطفون الأخيار ، وهو إمامهم وخاتمهم . وقد قال ﷺ :[**أنا سيد ولد آدم**][1]. فهو حامل الرسالة العالمية الخاتمة لجميع الرسالات ، وهو اللبنة الأخيرة فى صرح عقيدة التوحيد . فقد قال ﷺ : [**إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله . إلا موضع لبنة من زاوية ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ، ويقولون : هلاَّ وضعت هذه اللبنة ؟ قال : فأنا اللبنة**] [2] وفى رواية أخرى وأنا خاتم النبيين .

ولقد وصف الله تعالىٰ عددًا من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ببعض الصفات ، فقد وصف أبا الأنبياء إبراهيم عليه السلام فقال : ﴿ **واذكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صدِّيقًا نبيًّا** ﴾[3] . وقال عن

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل جـ١ ص ٥ .

(٢) ابن حجر العسقلانى . فتح البارى شرح صحيح البخارى . جـ ٦ ص ١٥٨ .

(٣) مريم : ٤١ .

إسماعيل : ﴿ **واذكر فى الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكـــان رسولا نبيا** ﴾ (١).

وفى سورة الأنبياء يصف إسحاق ويعقوب بالصلاح والخيريـــــة فيقول سبحانه وتعالى : ﴿ **ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلـــــة وكـــلاً جعلنا صالحين * وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعـــــل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكـــــاة وكــــانوا لنـــا عـــابدين** ﴾ (٢). ويصف لوطا وداود وسليمان بالعلم والحكمة : فيقـــــول : ﴿ **ولوطـــا آتيناه حكما وعلما** ﴾ (٣). ويقـــول ســـبحانه وتعـــالى : ﴿ **ففـــهمناها سليمان وكلاً آتينا حكما وعلماً** ﴾ (٤).

ويصـــــف إســـــماعيل وإدريـــس وذا الكفــــل بـــالصبر فيقــــول : ﴿ **وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين** ﴾ (٥).

وهكذا نرى الله تعالى يصف بعض أنبيائـــــه ببعـــض الصفـــات النبيلة ، لكنه فى ختام السورة عندما يصف محمدا ــ عليه الصـــــلاة والسلام ــ فإنه لا يصفه بصفة جزئية وإنما يجعله كله هداية إلهيـــــة

---

(١) مريم : ٥٤ .

(٢) الأنبياء : ٧٢ــ ٧٣ .

(٣) الأنبياء : ٧٤ .

(٤) الأنبياء : ٧٩ .

(٥) الأنبياء : ٨٥ .

إلى العالم ، ورحمة لهذه الإنسانية [1]. فيقول تعالى : ﴿ **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** ﴾ [2].

وفى موضع آخر يصفه بالصفة الجامعة لكل خصال الخير وجميع الفضائل الإنسانية ، فيقول : ﴿ **وإنك لعلى خلق عظيم** ﴾ [3].

والخلق العظيم هو جوهر رسالته ﷺ فهو القائل : [**بعثت لأتمم حسن الأخلاق**] [4] ولقد عاش رسول الله ﷺ أخلاقيا من طفولته إلى أن لقى ربه ، فقد كان قومه ينادونه بصفة نادرة فى ذلك الزمان وقبل أن يبعث : فقد نادوه وعرف بينهم " **بالصادق الأمين** " . وعظمة الرسول محمد ﷺ ليست فى أنه يمتاز بمجموعة من الأخلاق الإنسانية العالية فحسب ، فهو الأمين إذا ذكرت الأمانة ، وهو الصادق إذا ذكر الصدق ، وهو الوفى الكريم ، الزاهد ، الشجاع ، المتواضع ، الرحيم البار ، الحكيم ، الفصيح ، البليغ العابد ، كان الرسول هذا كله وكان فوق هذا ، فكانت أخلاقه فوق الصعاب وفوق كل الظروف والتقلبات التى تأتى بها الأيام ، لقد كان قادرًا على أن

---

(١) انظر فى ذلك البحث القيم الذى كتبه الأستاذ الدكتور عبد الحليم عويس بعنوان شخصية الرسول ﷺ فى كتاب : الجزيرة العربية محمد فى عهد الرسول والخلفاء الراشدين " جـ١ ص ٦٣ إلى ص ٩٣ . وهو مرجعنا الأساسى فى تلك المقدمة .

(٢) الأنبياء : ١٠٧ .

(٣) القلم : ٤ .

(٤) مسند الإمام أحمد بن حنبل جـ ٢ ص ٢٨١ .

يلتزم الموقف الأخلاقى المناسب ، مهما تكن اللحظة التاريخية حرجة وحاسمة ، إنه نبى يشرع بسلوكه وينطلق من منهج واضح وليس من ردّ فعل تُمليه أو تفرضه أية ضغوط أو ظروف (١).

" لقد تحدث بعض الكتاب معدداً الخوارق التى صاحبت الدعوة المحمدية فقال : " إن من أعظم الخوارق التى لمحمد ﷺ أخلاقه ، فكانت فى ذاتها أمرًا خارقًا للعادة بين بنى الإنسان ، فهى أعلى من أخلاق الملائكة ، لأن الملائكة حسنت أخلاقهم بمقتضى كونهم ، " لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون " .. فمحمد بين الناس الإنسان الذى تتجلى فيه الإنسانية الكاملة (٢).

وقد كانت صفحة حياته ــ عليه الصلاة والسلام ــ كما نقلت إلينا بكل دقة وتوثيق ــ أخلاقية إنسانية بلغت من السمو غاية ما يستطيع إنسان أن يبلغ ، وكانت لذلك أسوة حسنة لمن هداه الله أن يحاول بلوغ الكمال الإنسانى من طريق العمل الصالح ، وأى سمو فى الحياة كهذا السمو الذى جعل حياة محمد ﷺ قبل الرسول مضرب المثل فى الصدق والكرامة . والأمانة ، كما كانت بعد الرسالة كلها التضحية فى سبيل الله وفى سبيل الحق الذى بعثه الله به ، تضحية استهدفت حياته من جرائها للموت مرات ، فلم يصده عنه أن أغراه

---

(١) د . عبد الحليم عويس المرجع السابق ص ٧٣ .

(٢) الشيخ محمد أبو زهرة ــ خاتم النبيين جــ ١ ص ٢٤٢ .

قومه وهو فى الذروة منهم حسبًا ونسبًا بالمال والملك وكل المغريات " [1].

والغريب أن هذه الإنسانية الأخلاقية قد طبقت على هذا النحو الخارق للعادة فى أروع صور البساطة واليسر ، فبدت – مع سموها – وكأن البساطة وعدم التقعر أو التكلف نسيجها الذى يجمع بين خيوطها المترابطة [2]. فعن عائشة رضى الله عنها قالت : " ما لعن رسول الله ﷺ مسلمًا من لعنة تذكر ، ولا انتقم لنفسه شيئًا يؤتى إليه إلا أن تنتهك حرمات الله ، ولا ضرب بيده شيئًا قط ، إلا أن يضرب فى سبيل الله ، ولا سئل شيئًا قط فمنعه إلا أن يسأل مأثمًا ، فإنه كان أبعد الناس عنه .

عن عائشة رضى الله عنها قالت : " **ما خُيِّر رسول الله ﷺ بين أمرين إلا أخذا أيسرهما ما لم يكن إثمًا ، فإن كان إثمًا كان أبعد الناس عنه** " [3].

" إن هذا النبى كان له – كما يقول كاتب نصرانى – فى مجال الأخلاق شئون وشئون ، فبالرغم من مهامه الجسام وانشغالاته الكثيرة المتنوعة ، وبالرغم من الغزوات والسرايا والحروب ،

---

(١) محمد حسين هيكل – حياة محمد ص ٥٨٣ .

(٢) انظر د . عبد الحليم عويس – المرجع السابق ص ٧٤ .

(٣) صحيح البخارى ج ٢ ص ٢٧٣ . طبعة دار إحياء التراث العربى .

واضطلاعه بجميع المسئوليات وحده دون سواه ، فلقد وجد الوقت الكافى ليلقى على المؤمنين ـ بأقواله وأفعاله ـ دروسًا فى شئون لا تمر ببال مسئول كبير فى مثل مستواه وخطورته .. فذلك العظيم الذى كان يحاول تغيير التاريخ ، ويعد شعبًا يفتح الدنيا من أجل الله ، ذلك الرجل وجد الوقت الكافى ليلقى على الناس دروسا فى آداب المجتمع وفى أصول المجالسة وكيفية إلقاء السلام ، لكأنه معلم حصر مهمته فى تثقيف بضعة وعشرين تلميذًا ، ولم يكن له مهمة سواها " [1].

ولقد نجح محمد ﷺ نجاحًا باهرًا فى كل عمل اضطلع به من أكبر عمل وهو تبليغ الرسالة إلى أصغر عمل قام به [2].

فالتاريخ قد عرفنا برجال حملوا رسالات سماوية وأدوها بنجاح ، ورجال بنوا أممًا ، ورجال آخرين أسسوا دولاً ، لكن التاريخ لم يحدثنا عن رجل جاء برسالة سماوية من عند الله تعالى ، ثم بنى أمة ، ثم أسس دولة ، ونجح فى كل ذلك وفى حياته وقبل موته سوى النبى العربى محمد بن عبد الله ﷺ .

ولهذا جعله مايكل هارث على رأس قائمة الخالدين المائة من أبناء آدم وعلل ذلك حسب منهجه العلمى ومقاييس العظمة عنده ، بأن

---

(١) المرجع السابق ص ٧٤ نقلا عن الطبقات الكبرى لابن سعد جـ ١ ص ٣٦٧ .

(٢) نصرى سلهب ـ فى خطى محمد ص ٣٦٦ ـ ٣٦٧ .

محمدًا ﷺ كان الرجل الوحيد فى التاريخ الذى نجح بشـــكل أســـمى ، وبَرَّز فى كلا المستويين الدينى والدنيوى ، وأنه أسس ونشـــر أحـــد أعظم الأديان فى العالم ، وأصبح أحد الزعماء العالميين السياســـيين العظام . " **وأنه بعد مرور أربعة عشـــر قرنـــا لازال تـــأثيره قويـــا ومتجددًا** " [(١)].

وبالقياس نفسه يشـــهد لمحمـــد ﷺ المـــؤرخ العـــالمى الشـــهير ول ديورانت فيقول : " وإذا ما حكمنا على العظمة بما كان للعظيـــم من أثر فى الناس قلنا إن محمدًا كان من أعظم عظماء التاريخ ، فقـــد أخذ على نفسه أن يرفع المستوى الروحى والأخلاقى لشعب ألقت بـــه فى دياجير الهمجية حرارة الجو ولهيب الصحراء ، وقد نجـــح فـــى تحقيق هذا الغرض نجاحًا لا يدانيه فيه أى مصلح آخر فى التـــاريخ كله ، وقلَّ أن نجد إنسانا غيره حقق كل ما كان يحلم به ، وقد وصـــل إلى ما كان يبتغيه عن طريق الدين ، ولمْ يكن ذلك لأنه هو نفسه كان شديد التمسك بالدين وكفى ، بل لأنه لم يكن ثمة قوة غير قوة الديـــن تدفع العرب فى أيامه إلى سلوك ذلك الطريق الذى سلكوه ، فقد لجـــأ إلى خيالهم وإلى مخاوفهم وآمالهم ، وخاطبهم على قـــدر عقولـــهم ، وكانت بلاد العرب لما بدأ الدعوة صحراء جدباء ، تسكنها قبائل مـــن عبدة الأوثان ، قليل عددها متفرقة كلمتها ، وكانت عند وفاتـــه أمـــة

---

(١) انظر : الخالدون مائة . تأليف مايكل هارت ترجمة أمين منصور ص ١٣ .

موحدة متماسكة ، وقد كبح جماح التعصب والخرافات ، وأقام فــوق اليهودية والمسيحية ودين بلاده القديم دينًــا ســهلاً واضحًــا قويــا ، وصرحًا خلقياً قوامه البساطة والعزة ، واستطاع فى جيــل واحــد أن ينتصر فى مائة معركة ، وفى قرن واحد أن ينشىء دولة عظيمــة ، وأن يبقى إلى يومنا هذا قوة ذات خطر عظيم فى نصف العالم " [1].

بعد كل ما تقدم ، وهو قليل من كثير عن شخصية الرسول الخـاتم محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام وليس عجبًا أن تكــون تلــك الشخصية محور اهتمام كل الناس ، مسلمين وغير مسلمين على مدى تاريخه كله وأظن أن هذا الاهتمام سيستمر ما استمرت الحياة ، ولــن يبلغ الكتَّاب المؤلفون مهما كتبوا وألفوا جوانب العظمة فى شــخصية الرسول ﷺ وليس هناك أبلغ ــ فى هذا المجال ــ من الكلمــة التــى قدم بها فضيلة الإمام الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى ، شــيخ الأزهر الأسبق ، كتاب حياة محمد للأستاذ الدكتــور محمــد حســين هيكل حيث قال : " منذ وجد الإنسان على الأرض ، وهو مشوق إلــى تعرف ما فى الكون المحيط به من سنن وخصائص ، وكلما أمعن فى المعرفة ظهرت له عظمة الكون أكثر من ذى قبل ، وظــهر ضعفــه وتضاءل غروره .

---

(١) د . عبد الحليم عويــس المرجــع الســابق ص ٨٩ نقــلا عــن قصــة الحضــارة جـ ٢ ص٤٧ .

ونبى الإسلام صلوات الله عليه وسلامه ، شبيه بالوجود . فقد جدَّ العلماء منذ أشرقت الأرض بنوره يلتمسون نواحى العظمة الإنسانية فيه ، ويلتمسون مظاهر أسماء الله جلت قدرته فى عقله وخلقه وعلمه ، ومع أنهم استطاعوا الوصول إلى شىء من المعرفة ، فقد فاتهم حتى الآن كمال المعرفة . وأمامهم جهاد طويل وبعدٌ شاسع وطريق لا نهاية له " (١).

وندر أن نجد فى التاريخ البشرى رجلا عرفت حياته ــ الخاصة والعامة ــ بكل تفاصيلها ودقائقها كما عرفت ودرست حياة النبى محمد عليه الصلاة والسلام .

" فحتى قضاؤه لوطره ، واغتساله بعده ، وطريقة غسله ، ونومه ، وطريقة قضائه لحاجته واغتساله منها ، كل ذلك نقله إلينا التاريخ ، بطريقة موثقة ، ندر أن توثق بها نصوص فى التاريخ "(٢).

يقول المستشرق مونتيه فى وصف وضوح حياة الرسول ﷺ " ولقد ندر بين المصلحين من عرفت حياتهم بالتفصيل مثل محمد ، وإن ما قام به من إصلاح الأخلاق ، وتطهير المجتمع يمكن أن يعد به من أعظم المحسنين للإنسانية " (٣).

---

(١) ص ط من تقديم الإمام الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى لكتاب حياة محمد .
(٢) د . عبد الحليم عويس ــ المرجع السابق ص ٦٧ .
(٣) المرجع السابق ص ٦٨ .

دوافع المسلمين للاهتمام بسيرة الرسول ﷺ

ليس هناك شخصية تاريخية لقيت من اهتمام الدارسين والباحثين قديما وحديثًا كما لقيت شخصية الرسول محمد ﷺ وليس هناك أمة اعتنت بتاريخ وحياة نبيها ــ بكل تفاصيله ودقائقه ــ كما اعتنت الأمة الإسلامية ، وذلك لسببين رئيسيين .

الأول : إن هذه الحياة حياة مثالية فى جميع جوانبها ومستوياتها ودراستها متعة روحية وذهنية ، لأن الإنسان يبحث دائمًا عن المثل الأعلى والقدوة الحسنة ، لعلَّ الله يهديه إلى أقوم طريق وأفضل سلوك ، وليس هناك حياة وسيرة يمكن أن يتعلم منها الناس أعظم من حياة وسيرة النبى ﷺ وصدق الله تعالى إذْ جعلنا بل يأمرنا بالاقتداء به فيقول : ﴿ **لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة** ﴾ (١).

الثانى : إن الجانب الأعظم من حياة وسيرة الرسول ترجع للأمة ومن ثم كانت عنايتها بأحاديثه وأفعاله ومغازيه وأيامه ، وتكاد تكون كل كلمة تلفظ بها الرسول ، وكل حركة وكل فعل مرصودة من المسلمين ، ويحفظونها عن ظهر قلب ، ومدونة فى صدورهم قبل أن تدون فى الكتب عند بدء ، حركة التدوين مع نهاية القرن الأول الهجرى وبداية القرن الثانى .

---

(١) الأحزاب : ٢١.

بداية التأليف فى السيرة النبوية

من سنن الله الكونية أن كل شىء يخضع للتدرج فى النشأة والتكوين ، يتساوى فى ذلك الإنسان والحيوان والأفكار والعلوم والفنون ، فلا شىء يخلق كاملا ، أو ينشأ ناضجًا مستوى التكوين ، وإنما يمر بمراحل زمنية متتابعة ، حتى يصل إلى نضجه واستوائه وكماله ، وسيرة الرسول ﷺ لم تشذ عن تلك القاعدة ولم تخرج عن ذلك الناموس ، فنحن نعلم أن سيرة الرسول لم تدون فى حياته ، أعنى أنه لم يكن من بين الكتّاب الذين كانوا يكتبون للرسول ﷺ الوحى وغيره — وهم كثيرون — من تخصص فى تسجيل أحداث حياته ﷺ الخاصة والعامة ، واستمر الحال على ذلك طوال خلافة الخلفاء الراشدين الأربعة ١١ـ٤٠هـ ويبدو أنه كان لذلك أسباب كثيرة من أهمها أن الرجال الذين عاصروا الرسول ﷺ وهم صحابته رضوان الله عليهم جميعًا ، لم يكونوا فى حاجة إلى تسجيل تلك الأحداث ، فهم قد عايشوها وانفعلوا بها وتفاعلوا معها بدرجة لم يسبق لها مثيل فى تاريخ الرسالات والدعوات الدينية فكل مشهد منطبع فى ذاكرتهم ، وكل كلمة نطق بها الرسول حفظوها ، وكل عمل من أعماله معروف لديهم تمام المعرفة وبكل التفاصيل ، هذا

مع ما امتازوا به من قوة الحافظة وسرعة البديهة . لم تكن الحاجة إذن تدعو لتدوين أحداث حياة الرسول وسيرته لاستغنائهم بالمشاهدة والحفظ ولانشغالهم بالغزوات والفتوحات غير أنه لم يكد جيل الصحابة — وهم شهود وحفاظ السيرة — يختفى حتى ظهرت الحاجة إلى تدوين وتسجيل السيرة النبوية ، والتأريخ للعهد النبوى فجيل التابعين — وهم الذين رأوا الصحابة وعاصروهم وتعلموا منهم — لم يروا بأنفسهم الأعمال الرائعة والجهاد المجيد الذى قام به الرسول ﷺ من أجل الرسالة الإسلامية وتبليغها للناس ، ولكنهم سمعوا عن ذلك من الصحابة ، فبهرتهم الأعمال والمواقف والأخلاق فتاقت نفوسهم لمعرفة كل شيء بالتفصيل ، ولم يفوتوا الفرصة ، بل عضوا عليها بالنواجذ ، وأخذوا يسألون الصحابة الذين صحبوا الرسول وضحوا معه ، وشهدوا جميع مشاهده ومواقعه ، ومن الأسئلة التى كانوا يسألونها — على سبيل المثال — متى وكيف كانت بيعة العقبة ، متى كانت الهجرة إلى الحبشة ، وكم عدد الذين هاجروا فى الأولى والثانية ؟ ومتى عادوا ، وكيف كانت غزوة بدر ، ومن الذين شهدوها ، هذه الأسئلة وأمثالها كانت تلقى على الصحابة ويجيبون عنها ، وأسلوب السؤال والجواب — كما هو معروف — من أهم روافد العلم ، خصوصا فى مراحل النشأة والتكوين .

بل إن القرآن الكريم حافل باستخدام أسلوب السؤال والجواب حتى فى مجال العقيدة وإثباتها ، وإقامة الحجة على الكافرين الجاحدين ، مثل قول الله تعالى : ﴿ **قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون * سيقولون لله قل أفلا تذكرون * قل من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم * سيقولون لله قل أفلا تتقون** ﴾ [1].

وكان من الطبيعى أن تكون المدينة المنورة ، هى أصلح بيئة للإجابة عن كل ما يتعلق بحياة الرسول وسيرته ن حيث عاش معظم الصحابة الذين عايشوا أحداث الإسلام الكبرى فى عهد الرسول ، ونقلوها للتابعين ، الذين لم يكتفوا بالتلقى والحفظ ، بل بدأوا تدوين الوقائع والأحداث كما سمعوها من الذين شاهدوها ، وكانت تلك لحظة البداية ، بداية التأليف فى السيرة النبوية . واتسعت دائرة السؤال والجواب ، ولم تعد قاصرة على المدينة وحدها ، بل سارع الناس فى خطى الصحابة فى كل مصر حلوا به ، مثل البصرة والكوفة ودمشق والفسطاط .. إلخ .

ومن حسن الحظ أن من كبار التابعين الذين بدأوا التدوين فى السيرة النبوية ، وأصبحوا مصدرا رئيسيا من مصادرها كانوا من أبناء كبار الصحابة الذين أخذوا العلم عن آبائهم الكرام ، وهم الذين

---

(١) المؤمنون : ٨٤ـ ٨٧ .

رأوا كل شيء وشاركوا بأنفسهم ، بل كان من أوائل علماء السـيرة من هم على صلة قريبة ووثيقة ببيت النبى ﷺ مثل عروة بن الزبـير بن العوام ، فأمه أسماء بنت الصديق ـ رضى الله عنهما ـ وخالتـه أم المؤمنين عائشة ـ رضى الله عنها ، فتتلمذ عليـها ونقـل عنـها أخبارا كثيرة عن حياة النبى وسيرته وقد قسم العلماء كتـاب السـيرة النبوية والمؤلفين فيـها إلـى طبقـات . والطبقـة فـى اصطـلاح المحدثين ، هم جماعة تقاربوا في السن ، واجتمعوا فى لقاء الشيوخ .

طبقات كتاب السيرة

رجال الطبقة الأولى من كتاب المغازى والسير

١ــ أبان بن عثمان :

هو ابن الخليفة الثالث عثمان بن عفان ــ رضى الله عنه ــ ولد فى المدينة المنورة حوالى سنة عشرين للهجرة ، وتوفى فيـــها فـــى خلافة يزيد بن عبد الملك بن مـــروان ١٠١ــ ١٠٥ علـــى أرجـــح الأقوال ، وقد نشأ أبان فى كنف أبيه ، الخليفة الراشد ، أحد الســابقين إلى الإسلام والمبشرين بالجنة والذى كانت تســـتحى منـــه الملائكـــة كما أخبر الصادق الأمين ﷺ ، فهو من كبار الصحابة وفضلائـــهم ، وبيته من أصلح وأطهر البيوت ، فى أصلح وأطهر بيئة على وجـــه الأرض فى ذلك الزمان ، وهى بيئة المدينة المنورة ، فى هذا الجـــو وتلك البيئة وذلك البيت ــ حيث الصلاح والتقى ــ نشأ أبان وتعلـــم ، حتى أصبح من كبار فقهاء المدينة المعدودين والمشهورين .

ومن أعلام رواة الحديـــث الشـــريف . فقـــد روى عـــن أبيـــه ــ رضى الله عنه ــ وغيره من كبار الصحابة . كما تتلمذ على يديـــه كثيرون من كبار المحدثين والفقهاء ، أمثال محمد بن مسلم بن شهاب

الزهرى ، أستاذ إمام المؤلفين فى السيرة النبوية وعمدتهم ، محمد بن إسحاق بن يسار المطلبى .

ولقد اشتهر أبان بن عثمان بالمغازى والسير ــ فوق شهرته فى الفقه والحديث ــ حتى أصبح من أساتذة هذا الفن الحائزين على ثقة العلماء ، فقد قال ابن سعد فى الطبقات ، وهو يترجم للمغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام بن المغيرة ، قال عنه :" كان ثقة قليل الحديث ، إلا مغازى رسول الله ﷺ أخذها عن أبان بن عثمان " (١).

فهذا الخبر على وجازته يؤكد أستاذية أبان بن عثمان فى المغازى والسير ، فقد كان الحديث والمغازى والسير من أحب الأشياء إلى أهل المدينة ، ولعل ابتعاد أبان عن الاشتغال بالسياسة ــ باستثناء الفترة التى عمل فيها واليا على المدينة من سنة ٧٥ إلى سنة ٨٣هـ ــ فى خلافة عبد الملك بن مروان ــ أقول لعل ابتعاده عن السياسة ــ وقد عمر طويلا حيث نيف على الثمانين عاما ــ قلته من التفرغ للعلم ، درسا تدريسا ، وإذا كانت مؤلفاته قد ضاعت ــ فما ضاع أو تلف من تراث الإسلام .

ولم تصل إلينا ، فقد بقيت لنا ــ من حسن الحظ ــ رواياته وآراؤه فى المصادر التى وصلتنا بروايات تلاميذه .

---

(١) انظر الطبقات الكبرى لابن سعد جـ ٥ ص ١٧٩ .

٢ــ عروة بن الزبير :

هو الرجل الثانى من رجال الطبقة الأولى من كتــاب المغــازى والسير ، وأبوه الزبير بن العوام بن خويلد ، أحد السابقين الأولين إلى الإسلام ، وأحد المبشرين بالجنة ، وهو حوارى الرســول ﷺ وابــن عمته صفية بنت عبد المطلب ، وخديجة أم المؤمنين ــ رضــى الله عنهما عمته ، أى عمة الزبير بن العوام ، أما أم عــروة فــهى ذات النطاقين السيدة أسماء بنت أبى بكر الصديق ــ رضى الله عنــهما ــ وخالته عائشة أم المؤمنين ، وأحب أزواج النبى إليه ، وقد ولد عــروة فى المدينة المنورة ، حوالى سنة ٢٦هــ ، على أرجــح الأقــوال ، لأنه كان صغير السن عندما حدثت موقعة الجمل سنة ٣٦هــ ، ولــم يشهدها فقد قال هو فى نفسه : "رددت أنا وأبو بكر بن عبد الرحمــن ابن الحارث بن هشام ، يوم الجمل ، استصغرونا " .

فالبيت الذى نشأ فيه عروة ركناه أبوه الزبير بن العوام ، حوارى الرسول وأمه ذات النطاقين ، أسماء بنت الصديــق ، أمــا أســتاذته الكبرى ومعلمته فهى خالته ، السيدة عائشة أم المؤمنين ، التى كــان كثير التردد عليها ، والمداومة على زيارتها والتعلم منــها والحديــث إليها .

وإذا كان عروة قد شهد ــ وهو صبى فى العاشرة من عمره تقريبًا الفتنة الكبرى التى حلّت بالمسلمين وزلزلت كيانهم ، فى الشطر الثانى من خلافة عثمان بن عفان سنة ٣٠ــ ٣٥هــ ــ والتى استغرقت عهد على بن طالب كله ــ ٣٥ــ ٤٠هــ فإن الله سبحانه وتعالى قد تدارك الأمة الإسلامية برحمته ، ووحد كلمتها فى عام ٤١هــ وهو العام الذى سماه المسلمون عام الجماعة ــ بعد الفتنة والفرقة ــ حينما تنازل الحسن بن على رضى الله عنهما ، عن الخلافة لمعاوية بن أبى سفيان ــ رضى الله عنهما ــ إيثاراً لمصلحة الأمة ، وحقنا لدماء المسلمين ، مصدّقًا بذلك نبوءة جده عليه الصلاة والسلام ، حيث قال عنه : ابنى هذا سيّد ــ يقصد الحسن ــ ولعل الله يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين " (١).

ولقد استفتح معاوية ــ رضى الله عنه ــ عهده بالإحسان إلى أهل المدينة بصفة عامة ، وإلى الصحابة وأبنائهم بصفة خاصة ، وأغدق عليهم من الأموال ما أتاح لهم التفرغ للعلم والتعليم ، فزخر مسجد الرسول ﷺ بأعداد هائلة من الفقهاء والمحدّثين والمفسرين وأصحاب السير والمغازى وكان عروة بن الزبير ، فارسًا من فرسان هذه الحلقات وأبرز رجالها .

---

(١) صحيح البخارى جــ ٤ ص ٢١٦ .

فتروى المصادر ــ وكتب الطبقات ، أنه كان يجتمع كل ليلـــة ، بطريقة تكاد تكون منتظمة فى المسجد النبوى ، بمجموعة من كبـــار التابعين ومن رجال الطبقة الأولى منهم ، كانت تضم أخاه مصعـــب ابن الزبير ، وأبا بكر بن عبد الرحمن ، وعبد الملك بـــن مـــروان ، وعبد الرحمن بن مسور ، وإبراهيم بن عبد الرحمن ، وعبيد الله بـــن عبد الله بن عتبة وقبيصة بن ذؤيب الخزاعـــى ، ولـــم تكـــن هـــذه الاجتماعات سوى حلقات علمية ، يدور الحديث فيـــها عـــن العلـــوم الإسلامية من فقه وتفسير وحديث وســـير ومغـــازٍ ، وكمـــا اشـــتهر عروة بن الزبير بأنه أحد فقهاء المدينة السبعة الكبـــار ــ كمـــا هـــو الحال بالنسبة لأبان بن عثمان ــ فقد اشتهر بأنه من أكـــابر علمـــاء السيرة والمغازى ، وكان الناس ــ حتى زملائـــه فـــى الدراســـة ــ يتجهون إليه ، ليسألوه ويتعلموا منه السيرة النبوية بصفـــة خاصـــة ، لقربه من بيت النبى ، ولمعرفته أكثر من غيره بما كان يدور فى ذلك البيت الكريم عن طريق خالته السيدة عائشة ــ رضـــى الله عنـــها ــ فعبد الملك بن مروان ــ الخليفة الأموى المشهور ٦٥ــ ٨٦هـــ مـــع أنه كان أحد تلاميذ مدرسة المدينة المشهورين ومن فقهائـــها ، وقـــد لقب بحمامة المسجد ، لشدة ملازمته مسجد الرســـول ﷺ ، وانكبابـــه على حلقات العلم ، وهو من زملاء عروة وأصدقائه ، إلا أنـــه كـــان كثير الرجوع إليه فى كل ما يتعلق بأحداث السيرة النبويـــة ، وذلـــك

عندما شغلته السياسة عن طلب العلم بعد أن أصبح خليفة ويبـــدو أن عروة قد ألف كتبًا كثيرة فى السيرة وغيرها ، فـــهناك خـــبر جديـــر بالتنويه ، يرويه ابن سعد [1]، عن هشام بن عروة أن أباه أحرق يـــوم الحرة ــ يقصد يوم وقعة الحرة المشهورة بين ثوار المدينة وجيـــش الخليفة الأموى يزيد بن معاوية بن أبى سفيان سنة ٦٣هـــ ــ عـــدة كتب ، وقد حزن كثيرا على فقدها فيما بعد ، فهذا الخبر يـــدل علـــى انتشار الكتابة والتأليف فى ذلك الوقت المبكر ، من عـــهد المســـلمين بالتأليف والتدوين العلمى .

وإذا كانت مؤلفات عروة بن الزبير لم تصل إلينا ، فقد حفظـــت لنا المصادر الباقية لدينا ، الكثير من المادة العلمية والروايات التـــى كان مصدرها عروة ، ففى سيرة ابن إســـحاق ومغـــازى الواقـــدى وطبقات ابن سعد وتاريخ الطبرى روايات كثيرة عن أحـــداث ســـيرة الرسول ﷺ ومغازيه عن عروة بن الزبير ، وقد توفـــى رحمـــه الله تعالى سنة ٩٤هـــ [2].

---

(١) الطبقات الكبرى جـ ٥ ص ١٣٣ .

(٢) انظر ترجمة عروة فى المصدر السابق جـ ٥ ص ١٧٨ــ ١٨٢ .

٣ــ شرحبيل بن سعد :

ثالث الثلاثة فى الطبقة الأولى من كتَّاب السيرة المدنيين ؛ وهــو مولى بنى خطمة ، نشأ فى المدينة ، وتلقى عن جمع من الصحابــة ، منهم زيد بن ثابت وأبو هريرة ، وأبو سعيد الخدرى ، وغيرهم مــن كبار الصحابة [١]. وروى عن سفيان بن عيينة أنه لم يكن أحد أعلــم بالمغازى والبدريين منه ، وبرهن موسى بن عقبة أن شــرحبيل دوّن قوائم بأسماء المهاجرين إلى المدينة ، وأسماء الرجال الذين اشــتركوا فى غزوتى بدر وأحد [٢]. وقد امتد العمر بشرحبيل ، حيث توفــى عام ١٢٣هــ .

٤- وهب بن منبه

يعتبر وهب بن منبه من رجال الطبقة الأولى من كتَّاب المغــازى والسير وهو من مواليد اليمن ، فقد ولد فى قرية تسمى زمار بجــوار صنعاء حوالى سنة ٣٤هــ .وهو من هذه الناحية ــ ناحيــة النشــأة والميلاد ــ يختلف عن الرجال الثلاثة الذين سبق الحديــث عنــهم ، فكلهم مدنيون ، نشأوا فى مدينة الرسول ﷺ . ومعنى هــذا الاهتمــام

---

(١) انظر الطبقات الكبرى لابن سعد جــ ٥ ص٣١٠ وفيها ترجمة لشرحبيل بن سعد .

(٢) انظر كتاب: المغازى الأولى ومؤلفوها. ليوسف هوروفيتس. ترجمة د/حسين نصار.

بالمغازى والسِّير لم يعد مقصورًا على أهل المدينـــة وحدهــم ، بـــل أصبح الاشتغال بها موضع اهتمام من العلمـــاء فـــى كـــل الأقطـــار الإسلامية . ويختلف مؤرخو وهب بن منبه حول نسبه ، فمنهم مـــن يرى أنه من أصل يهودى ، ومنهم من يرى — وهو الأرجح — أنـــه من أصل فارسى ؛ أى من الفرس الذين سكنوا اليمن — فـــى فـــترة السيطرة الفارسية وسموا بالأبناء ، ولكن الأهم من هذا كله أنه قد نشأ فى أسرة مسلمة ، اشتهر معظم رجالها بالعلم ، وكانوا أهل ثقة عنـــد العلماء [١] ، وقد تأثر وهب بالجو العلمى الذى كان يحيط بـــه فـــى أسرته ، وروى عن طائفة من الصحابة ، منهم أبو هريرة ، وعبد الله ابن عمر بن الخطاب ، وعبد الله بن عباس ، وأبو سعيد الخـــدرى ، وجابر بن عبد الله وغيرهم وعنده من علم أهل الكتاب شىء كثـــير ، وحديثه فى الصحيحين عن أخيه همام بن منبه ، وكان ثقـــة واســـع العلم [٢]. ويعتبر من العلماء الموسوعيين ، الذين تناولوا موضوعـــات شتى ، فقد كانت له عناية واهتمام بأحاديث أهل الكتاب الذيـــن كـــثر عددهم فى جنرب بلاد العرب ، وهو من الثقات المعتمدين خاصة فى

---

(١) انظر طبقات ابن سعد جـ ٥ ، ص ٥٤٣، وتذكرة الحفاظ للذهبى، جـ ١، ص ١٠٠ وفيهما ترجمة لوهب .

(٢) تذكرة الحفاظ ، جـ ١ ، ص ١٠٠— ١٠١ .

قصص الأنبياء [1]. ويرجح أنه كتب كثيرًا فى المغازى والسير ، مما جعل العلماء يضعونه بين رجال الطبقة الأولى من علماء هذا الفــن . ويوجد فى مجموعة البرديات الموجودة فى مدينة هيدلبرج فى ألمانيــا مجلد ، يقول عنه بيكر : إنه يرجح أنه يحتوى على قطعة من كتـــاب المغازى لوهب بن منبه ، وتاريخ نسخ هذه القطعة عام ٢٢٨هـــــــ . وفيها معلومات عن بيعة العقبة الكبرى ، وحديــث قريــش فـــى دار الندوة ـــ الذى قرروا فيه قتل النبى ﷺ والاستعداد للـــهجرة نفســـها ، ووصول النبى ﷺ إلى المدينة [2] .

وهكذا أسهم وهب بن منبه إسهامًا طيبًا فى إثراء حركة التـــأليف فى المغازى والسير وعاش حياة علمية ثرية حتـــى توفـــاه الله ســـنة ١١٠هـــ .

(١) المغازى الأولى ومؤلفوها . مرجع سبق ذكره ص ٣٠ــ ٣١ .

(٢) انظر المرجع السابق ص ٣٤ ـــ ٣٥.

رجال الطبقة الثانية من كتَّاب المغازى والسير

لا يعنى تقسيم علماء المغازى والسير إلى طبقات ؛ أولى وثانية وثالثة .. إلخ ، أنه لا تبدأ الطبقة الثانية إلا إذا انتهت الطبقة الأولى ، لأنه ليس هناك حد زمنى فاصل بين هذه الطبقات ، فالعلم متصل ، وحلقاته ممتدة ومستمرة ، وأجيال العلماء متداخلة ، وربما يكون الواحد منهم تلميذا وأستاذا فى نفس الوقت ، بل المقصود من هذا التقسيم ، تمييز رجال كل مرحلة عن التى سبقتها والتى تلتها . وكلما امتد الزمن اتسعت دائرة العلم وزاد عدد العلماء وتلاميذهم ؛ ولذلك سنجد فى هذه الطبقة الثانية ، حشدًا كبيرًا من علماء المغازى والسير ذوى المكانة العلمية الرفيعة ، خاصة فى مدينة الرسول ﷺ .

ويكفى أن نلقى نظرة على سيرة ابن إسحاق — الذى سنخصه بحديث مفصل فى هذا الكتيب لتميزه وإمامته فى ميدان السيرة النبوية — والتى جاءتنا عن طريق عبد الملك بن هشام برواية زياد بن عبد الله البكائى ، ليعرف مدى الحجم الذى وصل إليه عدد العلماء ، وكيف كان اهتمام هذا الجيل بسيرة الرسول ﷺ فابن اسحاق يروى مباشرة بطريق المشافهة ، عن أكثر من مائة راوٍ من علماء المدينة ، وكلهم يروى عنه بقوله : حدثنى فلان ، أو أخبرنى فلان ، أو سألت

فلانا فأخبرنى ، فبالإضافة إلى أستاذه الأكبر محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى ، نجده يروى عن عدد كبير من العلماء ، كثيرون منهم من أسرة واحدة ، مثل آل الزبير ومواليهم ، فهو يروى عن هشام بن عروة بن الزبير ، وعن يحيى بن عروة بن الزبير ، وعن عمر بن عبد الله بن الزبير ، وعن محمد بن جعفر بن الزبير وعن يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير ، وعن يزيد بن رومان ، مولى عروة بن الزبير ، وغيره من مواليهم ، ورواية ابن إسحاق عن هشام بن عروة عن أبيه، أو عن الزهرى عن عروة بن الزبير ، لها قيمتها الكبرى من ناحية التوثيق العلمى ، فهى مرفوعة فى أغلب الأحوال إلى السيدة عائشة ، أم المؤمنين ، رضى الله عنها ، وإذا رفعت الرواية عن الثقات ، عن سيرة الرسول ﷺ ، إلى السيدة عائشة ، كانت هى الصدق بعينه ، كذلك يروى ابن إسحاق عن نافع مولى عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وعن عاصم بن عمر بن قتادة الأنصارى ، وعن عبد الله بن أبى بكر بن حزم الأنصارى ، وعن أبيه إسحاق بن يسار . ورجال هذه الطبقة ــ الثانية ــ من علماء المغازى والسير ، هم أساتذة محمد بن إسحاق وشيوخه المباشرون ، ولكثرة عددهم فمن الصعب الحديث عنهم كلهم فى حيز هذا الكتيب ، ولذلك سنقصر الحديث على أشهرهم وأكثرهم تأثيراً فى إثراء حركة التأليف فى ميدان المغازى والسير ، ويأتى على رأس القائمة :

١ ـــ محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى (١).

ينتسب الزهرى إلى بنى زهرة ، وهم أخوال النبى ﷺ ، وهو من كبار التابعين وأعلامهم ، ويعتبر من أعظم مؤرخى المغازى والسير ، وإليه يرجع الفضل فى تأسيس مدرسة المدينة التاريخية ، إلى جانب كونه من كبار الفقهاء والمحدثين . وقد رأى الزهرى عشرة من الصحابة ، وتتلمذ على كبار علماء التابعين وأعلامهم ، ومنهم سعيد بن المسيب ، وعروة بن الزبير ، وأبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف ، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة وهؤلاء هم الذين كان الزهرى يعتبرهم بحور قريش فى العلم .

وروى عن الزهرى جماعة من العلماء الأئمة الأعلام ، يأتى فى مقدمتهم فقيه المدينة وعالمها الأشهر ـــ الذى قيل عنه لا يفتى ومالك فى المدينة ـــ مالك بن أنس الأصبحى ، وسفيان بن عيينة ، وسفيان الثورى وقد ذاع صيت الزهرى ، وأصبحت له مكانة علمية رفيعة فى أوساط العلماء ، فقد سئل مكحول الدمشقى : من أعلم من رأيت ؟ فقال: ابن شهاب ، قيل له ثم من؟ قال : ابن شهاب ، قيل له ثم من ؟ قال : ابن شهاب كان قد حفظ علم الفقهاء السبعة ـــ يقصد فقهاء المدينة المشهورين ـــ وكتب عمر بن عبد العزيز وهو خليفة ـــ إلى

---

(١) انظر ترجمة الزهرى فى وفيات الأعيان لابن خلكان ، جـ ٤ ص ١٧٧وما بعدها ، وفى تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلانى ، جـ ٩ ، ص ٤٤٨ وما بعدها .

سائر الأقاليم : "عليكم بابن شهاب ، فإنكم لا تجدون أحدًا أعلم بالسنة الماضية منه"[١]. فعمر بن عبد العزيز ــ وهو من هو ــ لا يقول مثل ذلك الكلام عن ابن شهاب إلا إذا كان الرجل فعلا يستحق هذا الثناء من الخليفة العالم ، بما بلغ من مكانة علمية . والحق أن ابن شهاب كان موضع احترام وإجلال خلفاء بنى أمية ، لأنه إلى جانب تبحره فى العلوم ، كان يحترم نفسه ، ولم يداهن فى الحق[٢] .

وقد امتاز محمد بن شهاب الزهرى عن معاصريه بكثرة الكتابة والتدوين واقتناء الكتب . وكان إذا جلس فى بيته بين كتبه اشتغل بها عن كل شىء سواها من أمور الدنيا ، حتى يروى أن امرأته كانت تقول له : " إن هذه الكتب أشدُّ علىَّ من ثلاث ضرائر " [٣]. لاشتغاله بها عنها .

وكان اهتمام الزهرى بالكتابة والتدوين هو الذى مكّنه من نشر علمه ، وبوأه تلك المكانة العلمية الرفيعة التى حظى بها فى أوساط العلماء ، وفى بلاط الخلفاء ومجالسهم ، وكان هو شديد الفخر بذلك ، وروى عنه أنه كان يقول : "ما نشر أحد من الناس هذا العلم نشرى ، ولا بذله بذلى " .ولقد ضاع ما كتبه ودونه الزهرى بنفسه ، ولم يصل

---

(١) انظر وفيات الأعيان ، جـ ٤ ، ص ١٧٧ .

(٢) انظر المغازى الأولى ومؤلفوها ، ص ٥٨ .

(٣) انظر وفيات الأعيان ، جـ ٤ ، ص ١٧٧ .

إلينا كما هو . ولولا ما بقى لنا من علمه مما رواه تلامذته — وبصفة خاصة أشهرهم وأنبغهم محمد بن إسحاق — لكانت خسارتنا فادحة ، فإلى ابن إسحاق يرجع الفضل الأكبر فى حفظ علم أستاذه الزهرى ، فهو الذى أوصله إلينا ، لأنه كانت تربطه بأستاذه علاقة متينة قائمة على الحب والاحترام ، ومما دل على قوة تلك العلاقة ومتانتها ، ورفعة مكانة ابن إسحاق عند أستاذه وثقته فيه ، أنه كان يعتبره مرجعه الأول في كل ما يتعلق بسيرة الرسول ﷺ مما يحصل عليه من معلومات من طرق أخرى ليتثبّت من صحتها ، فعندما زار ابن إسحاق مصر والتقى بعالمها الكبير يزيد بن أبى حبيب ، وروى عنه العلم ، أرسل إلى أستاذه الزهرى ، ليتثبت من صحة بعض الروايات وذلك من أمثال القصة التالية فقد قال ابن إسحاق نفسه : " حدثنى يزيد بن أبى حبيب المصرى ، أنه وجد كتابا فيه ذكر من بعث رسول الله ﷺ إلى البلدان ، وملوك العرب والعجم ، وما قال لأصحابه حين بعثهم ، قال — ابن إسحاق — فبعثت به إلى محمد بن شهاب الزهرى فعرفه " (١). واسم الزهرى هو الأشهر والأكثر ذكراً فى سيرة ابن إسحاق ، وكثيرا ما يعبر فيما يتعلق بروايته عن الزهرى ، بقوله : حدثنى محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى ،

(١) سيرة ابن هشام ، جـ ٤ ، ص ٢٩٩ .

وأحياناً يقول : حدثنى الزهرى فقط ، أو حدثنى ابن شهاب، أوسألت ابن شهاب الزهرى ، إلى غير ذلك من التعابير .

وكان للزهرى — الذى توفى سنة ١٢٤هـ — عدد آخر من التلاميذ غير ابن إسحاق ، وإن كانوا أقل شهرة من بن إسحاق ، ومنهم موسى بن عقبة المتوفى حوالى عام ١٤١هـ . ومعمر بن راشد المتوفى حوالى عام ١٥٤هـ وهما من رجال الطبقة الثالثة ومن كبار علماء المغازى والسير .

٢ — عبد الله بن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الأنصارى(١)

من علماء الطبقة الثانية من مؤلفى المغازى والسير ، وهو مدنى — أى من أهل المدينة — وكان جده الأعلى عمرو بن حزم أحد صحابة رسول الله ﷺ وقد ولاه الرسول على نجران ، وكتب له كتاباً حين بعثه ، أمره فيه بتقوى الله فى أمره كله ، ثم أمره بقبض الصدقات وتوزيعها على مستحقيها ، وأن يعلمهم القرآن والسنة ويفقههم فى الدين . أما جده المباشر ، محمد بن عمرو فقد قيل إن له رؤية — أى رأى رسول الله ﷺ وتوفى عام ٦٣هـ أما أبوه أبو بكر فقد ولى قضاء المدينة المنورة أثناء ولاية عمر بن عبد العزيز عليها من سنة ٨٧ إلى سنة ٩٣هـ . وذلك فى خلافة الوليد بن عبد الملك

(١) انظر ترجمته فى سير أعلام النبلاء للذهبى ، جـ ٥ ، ص ٣١٤ .

ابن مروان ٨٦ـ ٩٦هـ . ثم أصبح واليا على المدينة في خلافة سليمان بن عبد الملك بن مروان ٩٦ـ ٩٩هـ . وخلافة عمر بن عبد العزيز ٩٩ـ ١٠١هـ .. وقد عرف بمقدرته الفائقة فى رواية الحديث ، وكان من الثقات ، ولذلك عهد إليه عمر بن العزيز ــ أثناء خلافته ــ بجمع أحاديث رسول الله ﷺ .

يقول عنه الذهبى [١] : " أمير المدينة ثم قاضى المدينة ، أحد الأئمة الأثبات وقيل كان أعلم أهل زمانه بالقضاء .

وقال عنه الإمام مالك بن أنس : " ما رأيت مثل ابن حزم ، أعظم مروءة وأتم حالا ، ولا رأيت من أوتى مثل ما أوتى ، ولاية المدينة والقضاء والموسم " [٢]وهو من شيوخ ابن إسحاق .

فعبد الله بن أبى بكر نشأ إذن فى بيت علم وقضاء وإمارة ، وورث عن أبيه مواهبه ، واختص برواية الحديث ــ خاصة الأحاديث المتصلة بالمغازى ــ وكان حجة فى ذلك وهو أحد مصادر كبار علماء السيرة والمؤرخين ، فقد روى عنه ابن إسحاق ، ومحمد ابن عمر الواقدى ، ومحمد بن سعد ــ كاتب الواقدى ، والطبرى . خاصة الروايات التى تتصل بأخبار الرسول فى المدينة ووفود القبائل ، إلى رسول الله ــ فى عام الوفود ــ وأخبار تتعلق بحروب الردة ، وكانت زوجته فاطمة بنت عمارة راوية للحديث ، وكانت تروى عن عمرة بنت عبد الرحمن بن سعد بن زرارة ، وعمرة كانت

---

(١) المصدر السابق ، نفس الجزء والصفحة .

(٢) انظر سير أعلام النبلاء للذهبى ، جـ ٥ ، ص ٣١٤ .

تروى عن السيدة عائشة ـ أم المؤمنين رضى الله عنها ـ وكان هو يروى عن زوجته، بل كان يسمح لها أن تحدث الغير بما عندها من أخبار عن السيرة النبوية ـ فقد أخبر الطبرى ، عن محمد بن إسحاق أنه دخل على عبد الله بن أبى بكر ـ ابن حزم ـ فقال عبد الله لامرأته فاطمة : " حدثى محمدًا ما سمعت من عمرة بنت عبد الرحمن ، فقالت : سمعت عمرة تقول : سمعت عائشة تقول .. إلخ ، ويروى الطبرى عن محمد بن إسحاق ـ أيضًا ـ عن عبد الله بن أبى بكر قال : كان جميع ما غزا رسول الله ﷺ بنفسه ستا وعشرين غزوة ، أول غزوة غزاها ودّان ، ثم بواط .. إلخ .

وعلى الجملة فقد كان عبد الله بن أبى بكر بن محمد بن عمرو ابن حزم الأنصارى عظيم الأثر فى كتب السير والمغازى ، وكان له من بيته العظيم فى الأنصار ـ وهو بيت علم وقضاء وإمارة ـ وتزّوجه من فاطمة بنت عمارة الأنصارية والتى كانت تروى عن عمرة بنت عبد الرحمن ، التى تروى بدورها عن السيدة عائشة ـ أم المؤمنين رضى الله عنها ، كان له من كل ذلك ما يسر له جمع الأحاديث التى تتصل بالمغازى [١] ، وأن يصبح مصدراً كبيراً من مصادرها ، وأحد أعلام الطبقة الثانية من علماء المغازى والسير .

---

(١) ضحى الإسلام ـ أحمد أمين ، جـ ٢ ، ص ٣٢٤ ـ ٣٢٥ .

٣ـ عاصم بن عمر بن قتادة :

يعتبر المؤرخون عاصما أحد رجال الطبقة الثانية البارزين من كتّاب المغازى والسير ، وجده قتادة بن النعمان الظفرى الأنصارى كان من صحابة رسول الله ﷺ وشهد معه بدرًا وأحدًا ، ويوم أحد أصيبت عينه وسقطت على وجنتيه ، فردّها رسول الله ﷺ فعادت أحسن عينيه وأحدّهما [١].

ولما كان قتادة أحد الصحابة المجاهدين الذين شهدوا المشاهد مع رسول الله فقد روى لابنه عمر ما شهده وشاهده بنفسه من مغازى وسير وأخبار رسول الله ، ورواها عمر لابن عاصم الذى أصبح حجة فى ذلك ، قال عنه محمد بن سعد : " وكان راوية للعلم ، وله علم بالمغازى والسير ولتبحره فيهما فقد كلّفة الخليفة عمر بن عبد العزيز ٩٩ــ ١٠١ أن يجلس فى المسجد الأموى فى دمشق ليحدث الناس عن المغازى ومناقب الصحابة ففعل [٢]. وكان من المصادر المهمة التى اعتمد عليها أصحاب السير والمغازى ، مثل محمد بن إسحاق ومحمد بن عمر الواقدى ، وقد توفى عاصم عام ١٢٠م وقيل عام تسع وعشرين .

---

(١) انظر سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ٣١ .

(٢) انظر السيرة النبوية للشيخ محمد أبو شهبة ، ص ٢٥ .

رجال الطبقة الثالثة من كتّاب المغازى والسير

قلنا فى صدر هذا البحث إن الكتابة والتأليف فى المغازى والسير خضعت لسنة التدرج والتطور ، وكلّما مرَّ الزمن اتسعت دائرة العلماء ، ولذلك ففرسان هذه الطبقة كثيرون ، ومن ثم فنحن مضطرون للحديث عن أشهرهم ، مثل موسى بن عقبة ، ومعمر بن راشد ، حديثاً موجزا ، ثم نتحدث بالتفصيل عن أشهر رجال هذه الطبقة على الإطلاق وإمام هذا الفن ، وهو محمد بن إسحاق ، لأهميته وتأثيره الكبير فى ذلك العلم الذى أصبح الناس فيه عيالا عليه ، حسب تعبير الإمام الشافعى ، رحمة الله تعالى عليه والآن إلى الحديث عن :

١ــ موسى بن عقبة :

هو مولى من الموالى ، وكان مولى لآل الزبير ، وقد مر بنا أن بيت الزُّبيريين كان حافلاً بعدد هائل من العلماء ، خاصة فى ميدان المغازى والسير ، مثل عروة بن الزبير وابنيه هشام ويحيى وعمر ابن عبد الله بن الزبير ، ومحمد بن جعفر عبد الله بن الزبير ، ويحيى ابن عباد بن الزبير وقد عرفنا الصلة التى كانت تربط الزبيريين ببيت النبى ﷺ عن طريق خالتهم السيدة عائشة رضى الله عنها ــ

مما جعلهم مصدرا موثوقا به عن أخبار سير ومغازى رسـول الله ، وقد استفاد مواليهم من صلتهم بهم ، ومن أبرزهم عالمنا هـذا الـذى نحن بصدد الحديث عنه ، وهو موسى بن عقبة الذى كان له أخـوان أكبر منه سناً ، وهما إبراهيم بن عقبة ، ومحمد بن عقبـة ، وكـان الثلاثة من أبرز تلاميذ مدرسة المدينة المنورة فى الفقه والحديـث ، وإن كان عقبة قد برز وانتهر فى علم المغازى ، وكان ثقـة عنـد العلماء حتى استحق أن يقول عنه الإمام مالك بـن أنـس :"عليكـم بمغازى ابن عقبة ، وهى أصح المغازى"[١].

وقد كتب سيرة مختصرة موجزة ، لم تصل إلينا كاملة ، وإنمـا وصلتنا منها مقتطفات فى طبقات ابـن سـعد ، وتـاريخ الطـبرى ويروى موسى بن عقبة أن أحد موالى عبد الله بن عباس وهو كريـب ابن أبى مسلم ــ وضع عنده حمل بعير من كتب ابن عبـاس ، ممـا يدل على أن التدوين قد بدأ مبكرًا ، غير أن معظم مدونـات الفـترة الأولى قد ضاعت وقد توفى موسى بن عقبة سنة ١٤١هـ .

---

(١) انظر : ضحى الإسلام ، أحمد أمين، جـ ٢ ، ص ٣٢٧ ، والسيرة النبويـة للشـيخ محمد أبو شهبة ص ٢٦ .

٢ــ معمر بن راشد :

من رجال الطبقة الثالثة البارزين ، من كُتاب السير والمغـازى ، وهو مولى من الموالى وكان من أهل الكوفـة ، كمـا يقـول بـن النديم[١]، ثم رحل إلى البصرة ثم اليمن ، وظل ينتقل بين هذه البلاد ، يتلقى العلم عن الشيوخ ، وكان أبرز شيوخه محمد بـن مسـلم بـن شهاب الزهرى ، وكان هو من أنبل وأنجب تلاميذ الزهرى ــ بعـد ابن إسحاق ــ ولذلك فأكثر ما يرويه معمر عن السـير والمغـازى ينسبه إلى شيخه ، الإمام الزهرى ، وكان يتحلـى بخلـق كريـم ، وصفات حميدة كثيرة ، يقول عنه ابن سعد : " كان معمر رجلا لـه حلم ومروءة ونبل فى نفسه " [٢].

كما كان واسع العلم بالحديث والسير والمغازى ، وإن كان ابـن النديم فى الفهرست لم ينسب له سوى كتاب واحد فى المغازى . فقـد قال عنه : "معمر بن راشد من أهل الكوفة، يروى عنه عبد الرزاق ، من أصحاب السير والأحداث وله من الكتب ، كتاب المغـازى" [٣]. وحتى هذا الكتاب لم يصل إلينا ، وإنما وصلنا منـه مقتطفـات فـى الواقدى وابن سعد والبلاذرى والطبرى . وكانت وفاته سنة ١٥٠هـ أو ١٥٢هـ [٤].

---

(١) الفهرست ص ١٣٨ .

(٢) ضحى الإسلام جـ ٢ ص ٣٢٨ .

(٣) الفهرست ص ١٣٨ .

(٤) ضحى الإسلام ، جـ ٢ ، ص ٣٢٨ .

٣ـ محمد بن إسحاق المطلبى [(١)].

إذا نحن وصلنا إلى ابن إسحاق فقد وصلنا إلى إمام الأئمة وأكبر علماء السير والمغازى على الإطلاق ، وفى كل العصور ، ومن عليه كان اعتماد كل من كتب فى السيرة النبوية ومغازى الرسول ﷺ ممن جاءوا بعده .

فهو فارس هذا الميدان دون منازع ، ولقد شهد له بذلك جمع من العلماء ، منهم أستاذه ، محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى ، حيث قال : " من أراد المغازى فعليه بابن إسحاق " وقال عنه الإمام الشافعى : " من أراد التبحر فى المغازى فهو عيال على ابن إسحاق " . ويقول عنه ابن خلكان وهو راوى هذه الأخبار : " وأما فى المغازى والسير فلا تجهل إمامته " وسئل يحيى بن معين عن ابن إسحاق فقال : " قال عاصم بن عمر بن قتادة ، لا يزال فى الناس علم ما عاش ابن إسحاق " وقال سفيان بن عيينة : " لا يزال

---

(١) انظرـ فيما يتعلق بابن إسحاق وأخباره ومكانته العلمية وآراء العلماء فيه ، المصادر الآتية : ١ـ الطبقات الكبرى لاين سعد ، جـ ٤ ص ٣٢١ـ ٣٢٢ ـ طبعة دار صادر بيروت. ٢ـ الجرح والتعديل لابن أبى حاتم ، القسم الثانى من المجلد الثالث ص ١٩١ـ ١٩٤ ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت . ٣ـ تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ـ دار الكتاب العربى بيروت . ٤ـ الفهرست لابن النديم ـ دار المعرفة بيروت . ٥ـ تذكرة الحفاظ للذهبى جـ ١ ص ١٧٢ . ٦ـ لسان الميزان لابن حجر ، جـ ٥ ، ص ٧٢ ـ مؤسسة الأعلى للمطبوعات ، بيروت .

فى المدينة علم ما عاش هذا الغلام – يقصد ابن إسحاق " وقال عنه الذهبى ، وهو معروف بتحريه ودقته وصرامته فى الحكم على الرجال : " والذى تقرر عليه العمل أن ابن إسحاق إليه المرجع فى المغازى والأيام النبوية .. وكان أحد أوعية العلم ، حبرًا فى معرفة المغازى والسير "[1]. وأقوال العلماء فيه مستفيضة ، وكلها مجمعة على إمامته فى المغازى والسير ، لذلك رأينا أن نخصه بمزيد من التقصى والتفصيل لأخباره ، حتى يعرف المسلمون علماءهم ، وأصحاب الفضل فى إيصال أخبار وسير ومغازى وجهاد رسولهم وصحابته إليهم فمن هو ابن إسحاق .

هو محمد بن إسحاق بن يسار بن خيار – وقيل يسار بن كوتان – المطلبى بالولاء ، المدينى ؛ نسبة إلى مدينة الرسول ﷺ وكان يكنَّى بأبى بكر ، وقيل بأبى عبد الله، وكان جده يسار من أهل قرية عين التمر بالعراق ، وقد وقع فى أسر المسلمين عندما فتح خالد بن الوليد رضى الله عنه عين التمر فيما فتح من أرض العراق سنة ١٢هـ فى خلافة أبى بكر الصديق رضى الله عنه ١١–١٣هـ وأرسل يسار بن خيار مع غيره من الأسرى إلى المدينة المنورة – عاصمة الدولة الإسلامية فى ذلك الوقت . ولا يعرف على وجه

(١) انظر تذكرة الحفاظ للذهبى ، جـ ١ ، ص ١٧٢ .

اليقين ما إذا كانت أسرته عربية أم أعجمية ، وإن كان ليس بعيدا أن تكون عربية مسيحية ، وصار ولاء يسار إلى قيس بن مخرمة ابن المطلّب ، وقد أسلم فأعتقه مولاه ، ومن ثم نسب إليهم فلقب بالمطلّبى .

وكان ليسار بن خيار ثلاثة أولاد ؛ أحدهم إسحاق ، والد عالمنا الذى نتحدث عنه والذى طبقت شهرته الآفاق ، وهو محمد بن إسحاق الذى ولد فى المدينة المنورة ، حوالى عام ٨٥هـ ونشأ بها — وقد سبق أن أشرنا كثيرا إلى بيئة المدينة وفضلها وصلاحها وحركتها العلمية الواسعة فى مسجد الرسول ﷺ ولا ينكر أحد فضل البيئة والوسط المحيط وتأثيرهما فى تنشئته الناشئة ، وأى بيئة أفضل من بيئة مدينة رسول الله ﷺ وصحابته وتابعيهم ، ولم تكن البيئة والجو العام الذى أحاط بابن إسحاق هو الذى أثر فيه فقط ، بل كانت بيئته الخاصة ذات تأثير فيه كذلك ، فأبوه إسحاق ابن يسار كان من العلماء وكان محدثا وفقيها ، روى عنه ابنه محمد ، وكثيرًا ما نجده يقول حدثنى أبى إسحاق بن يسار .

وقد أدرك ابن إسحاق بعض الصحابة ممن طالت أعمارهم ، فقد رأى أنس بن مالك صاحب رسول الله ﷺ وخادمه المشهور رضى الله عنه . وتتلمذ على كبار التابعين ، من أعيان علماء المدينة المنورة وفقهائها المعدودين المشهورين ، ومنهم القاسم بن محمد

ابن أبى بكر الصديق ، وأبان بن عثمان بن عفان ـ وهو من رجـــال الطبقة الأولى من علماء المغازى والسير ، كما سبق القول عنـــه ـ ومنهم محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ، وأبو سـلمة ابن عبد الرحمن بن عوف ، ونــــافع مولـــى عبــد الله بـــن عمـــر ابن الخطاب ، وعاصم بن عمر بن قتادة بن النعمـــان الأنصـــارى . وعبد الله بن أبى بكر بن محمد بن عمرو بـــن حـــزم الأنصـــارى ، وغيرهم .

وقد سبق القول أن أستاذه الأكبر ، والذى كان أثره فيـــه أكـــبر وأوضح من غيره ، هو محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى .

رحلته إلى مصر

لم يكتف ابن إسحاق بأنه ولد ونشا فى مدينة الرسول ، وتنفـــس هواءها المعطر بأريج النبوة ، وعطر الصحابة الكرام ، بـــل أراد أن يتزود من علم الصحابة الآخرين ، الذين تفرقوا فى الآفـــاق ونزلـــوا وسكنوا الأمصار المفتوحة ، فمن المعلوم أن جمعاً كبيراً من حملـــة العلم النبوى من صحابة رسول الله ﷺ ـ قد شاركوا فى الفتوحـــات الإسلامية ، بدءا من عهد الخليفة الأول أبى بكر الصديق رضـــى الله عنه ـ ومروراً بعهود الخلفاء الراشدين الثلاثـــة الآخريـــن ، عمـــر ابن الخطاب ١٣ ـ ٢٣ هـ وعثمان بن عفان ٢٣ ـ ٣٥ هـ وعلى

ابن أبى طالب ٣٥ــ ٤٠هــ رضى الله عنهم جميعاً ، وكثــير مــن هؤلاء الصحابة لم يعودوا إلى المدينــة ، وإنمــا اســتوطنوا البــلاد المفتوحة ، وعاشوا حياتهم كلها فيــها ، وأصبحــوا معلميــن ولــهم مدارس ، وتلاميذ ، فأراد بن إسحاق أن يتزود من علم هؤلاء ومــن علم تلاميذهم ، وأن يطلع على اتجاه مدارسهم وأفكارها فكانت رحلته الأولى إلى مصر ، التى أصبحت منذ أن تم فتحها على يــد الفــاتح الكبير البطل الجليل عمرو بن العاص ، سنة ٢١ هــ . مركزًا مــن مراكز العلوم الإسلامية ، فقد أسس الفاتح عمرو بن العــاص مدينــة الفسطاط سنة ٢١ هــ أى عند تمام الفتح ، وأسس مســجده العتيــق ــ أو تاج الجوامع ــ الذى يعتبر أول مسجد يؤسس فى قارة أفريقيــا والذى أصبح مركزًا للدراسات الإسلامية ، ومدرســة مــن أشــهر المدارس أساتذتها هم صحابة رسول الله ﷺ سواء الذين جــاءوا مــع جيش الفتح مجاهدين ، أو الذين لحقوا بهم وجاءوا بعد تمــام الفتــح وطاب لهم المقام فى أرض الكنانة ، وعلى ضفاف النيل واســتقروا فيها ــ وقد ازدهرت المدرسة المصرية فى الدراسات الإســلامية ، وذاع صيتها ، وأصبحت لها مكانة علمية رفيعــة ، فتــاقت نفــوس علماء الأقطار الأخرى إلى زيارتها وملاقاة علمائها والأخــذ عنــهم وإعطائهم أيضًا ، فالعلم أخذ وعطاء ، فما من عالم كبير فى المــشرق ــ فى ذلك الوقت ــ سواء فى مكة المكرمة ، أو المدينة المنــورة ،

أو الكوفة أو البصرة أو دمشق ، أو بغداد ، إلا وتراه قد زار مصر ، وتعرف على علمائها وأخذ عنهم وأعطاهم .

وكان من الطبيعى أن يتطلع طالب علم نابه مثل ابن إسحاق إلـى زيارة بلد مثل مصر ، فشد رحاله إليها ـ وهو فى شرخ شبابه وفـى مرحلة القوة والفتوة والقدرة على السفر ، والشد والترحـال ، وحـدة الذهن والقدرة على الحفظ والاستيعاب ، فقد بدأ زيارته لمصر عـام ١١٥هـ ، أى عندما كان فى حوالى الثلاثين من عمره ، وقد تجـول فى أقاليم مصر ، وزار مدينة الإسكندرية ـ التـى كـانت عاصمـة مصر منذ أسسها الإسكندر الأكبر المقدونى ، فى الثلث الأخير مـن القرن الرابع قبل الميلاد إلى الفتح الإسلامى فـى منتصـف القـرن السابع الميلادى أى أنها ظلت عاصمة مصر قرابة ألف عام ، وكانت بها مدرسة علمية لها شهرة عالمية ، فى علوم الطب والفلك والهندسة والرياضيات والكيمياء والفلسفة .

فكان من الطبيعى أن يزور ابن إسحاق الإسكندرية ما دام قد حل بأرض مصر .

وقد التقى ابن إسحاق بكثيرين من علماء مصر ، وفى مقدمتـهم عالمها الأكبر ، يزيد بن أبى حبيب ، وروى عنه كثيرًا ، وقد أشـرنا فيما سبق ـ ونحن نتحدث عن محمد بن مسلم بن شـهاب الزهـرى شيخ ابن إسحاق ـ إلى الوثيقة التى رواها ابن إسـحاق عـن يزيـد

ابن أبى حبيب ، ثم عرضها على شيخه الزهرى ، ليتأكد من صحة المعلومات التى جاءت بها ثم التقى بعبد الله بن جعفر ، والقاسم بن قزمان ، وعبيد الله بن المغيرة وغيرهم . وبعد أن تزود من علم علماء مصر — وتأثر بهم وأثر فيهم ، واطلع على اتجاهات المدرسة المصرية فى الدراسات الإسلامية ، عاد إلى المدينة ليواصل دراسته على أيدى أساتذته فيها . ولم يغادرها بصفة نهائية — على ما يرجح ، إلا فى رحلته الأخيرة إلى العراق بعد قيام الدولة العباسية سنة ١٣٢هـ ، حيث عاش بقية حياته فيها .

رحلته إلى العراق

عاش ابن إسحاق فى المدينة المنورة بصفة مستمرة حوالى نصف قرن ، ولم يغادرها إلا للحج إلى مكة المكرمة ، وزيارته لمصر سنة ١١٥هـ — والتى يبدو أنها لم تطل — ويبدو أن من الأسباب التى جعلت ابن إسحاق يلزم المدينة المنورة ولم يغادرها كثيرًا أن صلته لم تكن ودية مع دولة بنى أمية ، فلم نسمع أنه قام بزيارة لعاصمتهم دمشق ، وذلك عكس أستاذه محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى ، الذى كان على علاقة وطيدة مع خلفاء بنى أمية ومنحوه ثقتهم ، خاصة أصلحهم وأعلمهم عمر بن عبد العزيز ، وقد رأينا فيما سبق ثناء عمر بن عبد العزيز على الزهرى . أما تلميذه

ابن إسحاق فلم نسمع منه أنه اتصل بأحد من خلفاء بنى أمية ، ولعـل موقف ابن إسحاق هذا من الدولة الأموية كان منسجمًا مـع موقـف عامة أهل المدينة الذين كانوا لا يحملون ودًّا لبنى أمية ، ولم تنطـو قلوبهم على حـب لدولتـهم وخلفائـها ورجالـها ـ باسـتثناء عمـر ابن عبد العزيز ـ الذى كان موضع حـب وإعجـاب وثقـة جميـع المسلمين على اختلاف اتجاهاتهم ومشاربهم لسلوكه القويم وصلاحـه وتقواه وعدله وطهارة سيرته ـ أما بقية خلفاء بنى أمية فلم يحظـوا بحب أهل المدينة ولا رضاهم ، أو قل إن موقف أهل المدينـة مـن خلفاء بنى أمية كان أقرب إلى العداء والبغضاء منـه إلـى الـولاء والحب والود .

ولعل أهل المدينة لم ينسوا قط يوم الحرة أو موقعة الحرة التـى جرت بينهم وبين جيش الخليفة الأموى يزيد بن معاوية سنة ٦٣هـ على أثر ثورتهم ضده التى قادها عبد الله بن حنظلة ، والتى انتـهت بهزيمتهم وقتل الكثيرين منهم .

ونسب للجيش الأموى أعمال فظيعة إذا صحت تكـون كارثـة لأنها تخالف مبادئ الإسلام وآداب الحرب فيه حتى مع غير المسلمين فكيف مع مسلمين يعيشون فى جوار رسول الله ﷺ ، على أية حال لم ينس أهل المدينة ذلك اليوم ولم تصف نفوسهم لبنى أميـة ، وظلـت

ذكرى ذلك اليوم الحزين عالقة فى نفوسهم ، وكان ابن إسحاق واحدا منهم ، شاركهم فى مشاعرهم تلك وليس هذا غريبًا .

لقد أطلت فى توضيح صلة أهل المدينة بصفة عامة ببنى أمية ومحمد بن إسحاق بصفة خاصة ؛ لأن العلاقات السياسية كانت ذات تأثير على معظم أوجه الحياة ، ورضا رجال السياسة عن العلماء كان يعطيهم فرصة أكبر فى حرية الحركة والتجوال فى البلاد وزيارة المراكز العلمية ..

وتصديقًا لذلك ما إن سقطت دولة بنى أمية سنة ١٣٢هـ وقامت دولة بنى العباس حتى رأينا ابن إسحاق يشد رحاله مغادرًا المدينة — التى لم يكد يبرحها قرابة نصف قرن — إلى العراق ، ويتجول فى أرجائها من الكوفة إلى الجزيرة ، وأخيرًا يلقى عصا تسياره فى المدينة المدورة أو مدينة السلام أو مدينة المنصور — بغداد — تلك المدينة التى أخذت — منذ نشأتها سنة ١٤٥هـ — تخلب الألباب وتخطف الأبصار فهى مقام الخلافة ، وحاضرة الإسلام ، ومركز الأضواء والشهرة ، ومقر العلماء والشعراء والأدباء ، فليس غريبًا أن يطيب المقام لابن إسحاق فى مدينة لها كل تلك المميزات .

وقد اتصل ابن إسحاق — لعلمه وشهرته — بقمة الدولة ورأس الهرم الاجتماعى ، الخليفة الذائع الصيت ، ومؤسس بغداد ، بل

المؤسس الحقيقى للدولة العباسية ــ أبى جعفر المنصور ، وتوثقت الصلة بين الرجلين ، حتى أشيع أن كتاب المغازى ــ أو ما عرف بسيرة ابن إسحاق وهو سبب شهرته ــ قد وضعه بناء على طلب المنصور لابنه محمد الذى سيعرف بالخليفة المهدى فيما بعد .

وقد عاش ابن إسحاق ما تبقى من حياته فى كنف الخليفة المنصور فى بغداد حتى وافته منيته سنة ١٥١هـ على أرجح الأقوال .

علاقة محمد بن إسحاق بمالك بن أنس وهشام بن عروة

لا يكتمل الحديث عن ابن إسحاق إلا إذا عرفنا تلك الشخصية من مختلف جوانبها وفى كل أحوالها ، خاصة علاقته برجلين من كبار رجالات المدينة المنورة ، ومن ذوى النفوذ العلمى والكلمة المسموعة فيها ، وهما : مالك بن أنس الأصبحى ، الإمام المشهور ، ورأس المذهب الفقهى المعروف الذى ينسب إليه ، وثانيهما هو هشام بن عروة بن الزبير بن العوام ، فمعظم المصادر التى تناولت حياة ابن إسحاق وترجمت له تحدثت عن خلاف وقع بينه وبين كل من مالك بن أنس وهشام بن عروة . ولقد بالغ بعض الباحثين المحدثين [١] فى أمر ذلك الخلاف حتى جعلوه أحد الأسباب

---

(١) انظر : " المغازى الأولى ومؤلفوها " ص ٧٨ .

التى حملت ابن إسحاق علـــى مغـــادرة مســقط رأســه ــ المدينـــة المنورة ــ إلى العراق . ونحن لا ننكر أمر الخلاف الذى كان بيـــن ابن إسحاق وبين كل من مالك بن أنس وهشام بـــن عـــروة ، فـــهذا الخلاف مشهور ، ومسطور فى معظم المصادر الموثوق منها .

ولكننا لا نرى أنه وصل إلى حد العداوة التى حملت ابن إســحاق على مغادرة موطنه ، فالخلاف بين بعض العلمـــاء ــ والقــائم فـــى معظمه على اختلاف وجهات النظر فى المسائل العلمية لم يكد يخلـــو منه جيل ولا قبيل من العلماء ، وهذه طبيعة البشر فى كـــل زمـــان ومكان ، والمعاصرة حجاب كما يقولون .

ورغم ذلك لم نسمع أن عالما ترك وطنه ورحل إلى غيره مـــن أجل خلاف حدث بينه وبين بعض أقرانه ، ثم لو كان ذلك الخـــلاف هو سبب مغادرة ابن إسحاق المدينة المنورة ، فلما ذا بقى فيها نصف قرن قبل مغادرها عند سقوط الدولة الأموية .

وبعد : فلعلك أيها القارئ الكريم قد تاقت نفسك إلى معرفة شىء من أمر هذا الخلاف الذى وقع بين هؤلاء الرجال الكبـــار والعلمـــاء الأفذاذ ، ولا تثريب علينا فى إيراد ذلك الخلاف ومعرفته ، فـــهؤلاء ليسوا ملائكة ، وإنما هم بشر ، يختلفون ويحبـــون ويكرهـــون بـــل ويتعادون ، وليس فى ذلك خروج علـــى طبـــائع الأشـــياء ، بشـــرط ألا يحمل ذلك أحدهم على الفحش والفجور فـــى حـــق مـــن يخالفـــه

أو يخاصمه ، وأعتقد أن الأمر بينهم لم يصل إلى شيء مـــن هـــذا ، وحاشا لله أن يصل إلى هذا وهم من هم علمًا وتقى وصلاحًا ، ونحـــن نورد أمر هذا الخلاف لما كان له من أثر على موقف بعض العلمـــاء من بن إسحاق ، خاصة فى روايته للحديث .

وفيما يتعلق بالخلاف بين ابن إسحاق ومالك بن أنـــس تتحـــدث المصادر فتذكر أن ابن إسحاق كان يطعن فى نسب الإمام مالك بـــن أنس الأصبحى ـــ الذى ينسب إلى قبيلة أصبح العربيـــة اليمنيـــة ـــ ويزعم أنه مولى من موالى بنى تميم ، ولا ندرى كيف يقـــول ابـــن إسحاق ذلك عن مالك فى مقام الانتقاص منه ، وهو نفســـه مولـــى ، وكون الإنسان مولى لا ينتقص من قدره خاصة فى أوساط العلمـــاء ، والولاء هنا هو ولاء المحالفة والمودة وليس ولاء العبد للحر .

وقد كان هناك رجال من الموالى العلماء الذين حازوا احترام كل الناس من عرب وعجم ، مثل الحسن البصرى ـــ الذى قيل إنه عندما توفى سنة ١١٠هـــ فى البصرة ـــ خرج النـــاس جميعـــاً يشـــيعون جنازته حتى لم يوجد فى البصرة من يقيم صلاة العصـــر ، وكذلـــك كانت نظرة الناس لمحمد بن سيرين وغيره مـــن الموالـــى ـــ لـــهذا الأثر فى أن ما نسب لابن إسحاق فى ذلك صحيح ، لأنه لو كان فـــى الولاء نقص لعاد عليه هو نفسه .

أما الذى يمكن أن يكون سبباً من أسباب الخلاف ، فهو كثرة انتقادا بن إسحاق لعلم مالك ، فقد روى عنه أنه كان يقول : " ائتونى ببعض كتب مالك ، حتى أبين عيوبه ، أنا بيطار كتبه " فلما سمع مالك ذلك حنق على ابن إسحاق ، وحمل عليه وسفه علمه .

وقد روى الخطيب البغدادى عن أحد تلاميذا بن إسحاق ؛ وهو عبد الله بن إدريس أنه قال : قلت لمالك بن أنس : وقد ذكر المغازى — قال ابن إسحاق : أنا بيطارها ، فقال : هو قال لك أنا بيطارها ، نحن نفيناه من المدينة . ويضيف العلماء سبباً آخر للخلاف والجفاء بين ابن إسحاق ، والإمام مالك بن أنس ، فيقولون إن ابن إسحاق كان يتهم بالتشيع ، فعاداه مالك بن أنس — وهو إمام من أكبر أئمة أهل السنة — من أجل ذلك[1]. وإذا كان ذلك الاتهام صحيحًا فمن الجائز أن يكون أيضًا وراء الجفاء وعدم المودة بين ابن إسحاق والدولة الأموية . هذا عن الخلاف — وأسبابه — بين ابن إسحاق والإمام مالك بن أنس .

أما خلاف ابن إسحاق مع هشام بن عروة بن الزبير ، فترجعه المصادر التى تناولته إلى أن ابن إسحاق كان يروى الحديث عن فاطمة بنت المنذر — زوج هشام بن عروة — فأغضب ذلك هشامًا وأثار غيرته وحفيظته ، وقال : " متى دخل عليها ومتى سمع

---

(١) انظر، تاريخ بغداد للخطيب البغدادى جـ ١ ص ٢٢٣ — ٢٢٤.

منها ؟ " [1]. ويبدو أن رواية ابن إسحاق عن فاطمة بنت المنذر صحيحة ، أكدها سفيان الثورى حين سئل أكان ابن إسحاق قد جالس فاطمة بنت المنذر وسمع منها ؟ فقال : " أخبرنى ابن إسحاق أنها حدثته وأنه دخل عليها " [2]. وهذا الخبر فى حد ذاته ليس غريبًا ولا مستنكرًا ، إنما الغريب حقا هو غضب هشام بن عروة من ابن إسحاق ، وحملته عليه بسببه ، فرواية الرجال عن النساء وقعت وتقع كثيرًا ، ولم يستغربه أو ينكره أحد من علماء المسلمين ، وقد روى الصحابة والتابعون عن أمهات المؤمنين ـ أزواج النبى ﷺ ـ ولم يستنكر ذلك أحد . بل إن ابن إسحاق نفسه روى عن زوجة أستاذ آخر من أساتذته ، وهى فاطمة بنت عمارة الأنصارية زوج عبد الله ابن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الأنصارى ، ولم ينكره ولم يعترض عليه ، بل يروى أن زوجها نفسه ـ عبد الله بن أبى بكر ـ هو الذى طلب منها أن تُحَدِّث ابن إسحاق وقال لها : " حدثى محمدًا ما سمعت من عمرة بنت عبد الرحمن " فقالت له : أى لابن إسحاق : " سمعت عمرة تقول : سمعت عائشة تقول .. إلى آخر الحديث " فرواية ابن إسحاق إذا عن فاطمة بنت المنذر ـ زوج هشام بن عروة ـ ليست حدثًا فريدًا نادر الوقوع ، بل هو أمر مألوف فى تراثنا

(١) انظر ، الفهرست لابن النديم ، ص ١٣٦ .

(٢) تاريخ بغداد ، جـ ١ ، ص ٢٢١.

الإسلامى ولا غبار عليه . وفوق ذلك فإن فارق السن بين فاطمة بنت المنذر وبين تلميذها ابن إسحاق كبير وينتفى معه أى سبب للغيرة — التى هى شىء طبيعى فى طبائع الناس لو كان لها ما يبررها — فقد ولدت فاطمة — زوج هشام — عام ٤٨هـ . وأما ابن إسحاق فقد ولد عام ٨٥هـ كما سبق ذكره ، فهى تكبره بسبع وثلاثين سنة .

مكانة ابن إسحاق العلمية :

سبق الحديث عن مكانة ابن إسحاق العلمية وإمامته فى علم المغازى والسير ولا يكاد يوجد خلاف ـ بل هناك إجماع ـ على أنه إمام ورائد فى ذلك الفن ، وكتابه فى سيرة الرسول ﷺ ، عمدة فى ذلك العلم الجليل ، وعليه اعتمد ومنه أخذ ونهل كل من كتب بعده فى سيرة الرسول ومغازيه ، وإليك آراء العلماء فى مكانة ابن إسحاق ، ودرجة الثقة به فى الحديث الشريف عن رجال الجرح والتعديل .

فمن المعلوم أن العلماء — خاصة رجال الجرح والتعديل أو من يسمَّون بعلماء الرجال — يتشددون للغاية فى الحكم على الرجال الذين يأخذون عنهم الحديث ، أكثر من تشددهم فى الحكم على رجال المغازى والسير ورواة التاريخ والأخبار . وذلك لأن الحديث الشريف هو المصدر الثانى من مصادر الشريعة الإسلامية — بعد القرآن الكريم — وينبنى عليه معرفة الحلال والحرام ، وأحكام

العبادات والمعاملات . لذلك وضع علماء الجرح والتعديل شـــروطا قاسية لرجال السند ــ سند الحديث ــ وهم سلسلة الرواة ، وليس هنــا مكان تفصيل ذلك .

ورغم كل ذلك فإن معظم علماء الحديث يكادون يجمعون علــى توثيق حديث ابن إسحاق ، فقد سئل يحيى بن معين ، وهو من هو فى علم الرجال ــ فقال : " كان ثقة حسن الحديث " [١]. وقال شعبة بــن الحجاج : " محمد ابن إسحاق أمير المؤمنين فى الحديث " ، وقـــال : " لو سوّد أحد فى الحديث لسوّد ابـــن إســحاق " [٢]. وســئل علــى ابن المدينى عن ابن إسحاق ، كيف حديث محمد بن إسحاق عنــدك ؟ صحيح ؟ قال : " نعم ، حديثه عندى صحيح " [٣]. وقال أبـــو بكــر ابن الأثرم : سألت أحمد بن حنبل عن محمد بن إسحاق كيف هـــو ؟ فقال : " هو حسن الحديث " [٤].

وقد روى عن الزهرى ــ شيخ ابن إسحاق ــ وقد خـــرج إلــى قرية له وقد سار خلفه طلاب الحديث يسألونه فالتفت إليـــهم قـــائلا : " قد خلفت فيكم الغلام الأحول " [٥] ــ يعنى محمد بـــن إســحاق ــ

(١، ٢، ٣، ٤ ، ٥) راجع فى كل ذلك : تاريخ بغداد جــ ١ ص ٢١٨ــ ٢٢٩ .

وذكر الساجى أن أصحاب الزهرى كانوا يلجأون إلى محمد بن إسحاق فيما يشكون فيه من حديث الزهرى ، ثقة منهم يحفظه (١).

هذه هى منزلة الرجل ، وتلك هى مكانته عند علماء الحديث ، فقد وثَّقه وأثنى عليه شيوخه ، مثل الزهرى وعاصم بن عمر ، كما أثنى عليه تلاميذه ، مثل شعبة بن الحجاج وسفيان بن عيينة ، كما وثّقه وأثنى عليه اللاحقون من كبار رجال الحديث ، وعلماء الجرح والتعديل ، مثل يحيى بن معين وأحمد بن حنبل ، وهما من أكثر العلماء تشدداً فى قبول الأحاديث .

والجهة الوحيدة التى جاء منها تجريح لابن إسحاق ، وتوهين من شأنه فى رواية الحديث ، هى جهة الإمام مالك بن أنس ، من أجل الخلاف الذى كان بينهما ــ والذى وضحناه فيما سبق .

ولعل الذين توقفوا عن رواية الحديث عن ابن إسحاق ، كانوا متأثرين فى ذلك بموقف الإمام مالك بن أنس من ابن إسحاق ، ومالك كان صاحب نفوذ علمى كبير لا يخفى على أحد ، وهو الوحيد الذى لقِّب بإمام دار الهجرة ، وقد ذاع وشاع القول المأثور الذى صار مثلا " لا يفتى ومالك فى المدينة " وكان ذلك القول صحيحًا ولم ينكره أحد من العلماء .

---

(١) انظر وفيات الأعيان ، جـ ٤ ، ص ٢٧٦ ــ ٢٧٧.

فقد روى عن ابن وهب أنه قال : "سمعت مناديا ينادى بالمدينة ألا لا يفتى الناس إلا مالك بن أنس وابن أبى ذؤيب " [١].

وأهل المدينة هم الذين أمسكوا عن ابن إسحاق ، ولم يقبلوا أحاديثه ، مجاملة لإمامهم ؛ مالك بن أنس — واستمر ذلك الموقف حتى بعد وفاة مالك بزمن طويل . فقد روى عن مفضل بن غسان أنه قال : " حضرت يزيد بن هارون ، فى سنة ثلاث وتسعين ومائة بالمدينة ، وهو يُحَدِّث بالبقيع ، وعنده ناس من أهل المدينة يسمعون، فحدث بأحاديث ، حتى حدثهم عن محمد بن إسحاق ، فأمسكوا ، وقالوا : " لا تحدثنا عنه ، نحن أعلم به ، فذهب يزيد يحاولهم ، فلم يقبلوا منه ، فأمسك يزيد [٢]. ويزيد بن هارون هذا من تلاميذ ابن إسحاق .

وبيد أنه كان من أثر موقف مالك من ابن إسحاق أن الإمام البخارى لم يخرج له أحاديث ، بينما خرج له الإمام مسلم حديثاً واحداً ، من أجل طعن مالك فيه [٣].

ولكن رغم كل ذلك فإن ابن إسحاق سيظل جليل القدر ، عظيم المكانة عند العلماء .

---

(١) المصدر السابق ، جـ ٤ ، ص ١٣٥.

(٢) تاريخ بغداد ، جـ ١، ص ٢٢٦.

(٣) وفيات الأعيان ، جـ ٤ ، ص ٢٧٧.

آثار ابن إسحاق العلمية

ينسب ابن النديم فى الفهرست[1] لابن إسحاق كتابين ؛ أحدهما ، كتابه المشهور ، ويسميه ابن النديم كتاب : السيرة والمبتدأ والمغازى ، والثانى يسميه كتاب الخلفاء ، وهو مفقود ، ولم يصل إلينا حتى الآن ، أما الكتاب الأول فهو الذى وصلنا فى صورة تكاد تكون كاملة ، عن طريق عبد الملك بن هشام ، برواية زياد بن عبد الله البكائى ، والذى أصبح مشهوراً فى أوساط العلماء بسيرة ابن هشام . وبينما يسمى ابن النديم هذا الكتاب ؛ كتاب السيرة والمبتدأ والمغازى ، نجد محمد بن سعد ، وهو أسبق من ابن النديم — يسميه كتاب المغازى فقط ، ولعل مرجع ذلك الاختلاف فى التسمية ، هو أن المسلمين كان اهتمامهم فى مبدأ الأمر منصبّاً على مغازى رسول الله ﷺ وكان الصحابة يعلّمون أولادهم مغازى رسول الله ﷺ ، كما يعلمونهم سور القرآن الكريم ، وذلك لأهمية المغازى عندهم ، ولما فيها من جهاد وتضحيات كبيرة ، ولما فيها من تشريع وأحكام وقواعد فقهية وآداب وسلوك أخلاقى عظيم من الرسول ﷺ ، ومن صحابته الكرام ، فكانت القدوة فى كل ذلك عظيمة ، ومن ثم كان حرص الصحابة رضوان الله عليهم ، على تعليم أولادهم مغازى

---

(١) ص ١٣٦.

الرسول وكل ما يتعلق بها من أحكام وتشريع وآداب . فلما بدأ عـــهد التدوين كانت المغازى أول ما حظى بالاهتمام الأكبر من العلمـــاء ، وبدأوا فى تدوينها مستقصين كل أخبارها ، ومتتبعين خطى رســـول الله ﷺ فى كل غزواته ، حتى أن بعضهم ــ محمد بن عمر الواقدى ، على سبيل المثال ــ كان يحرص على مشـــاهدة مواقـــع الغـــزوات بنفسه ويتفقد الميادين التى شهدت جهاد الرسولﷺ وأصحابه .

بل أن الاهتمام بمغازى رسول الله ﷺ لم يبق مقصـــوراً علـــى مؤلفات علماء المغازى والسير ، فعلمـــاء الحديـــث مـــن أصحـــاب الصحاح والسنن والمسانيد وغيرهم قد ضَمَّنوا كتبـــهم أبوابـــاً عـــن مغازى رسول الله ﷺ لهذا ــ ربما ــ اكتفى محمد بن سعد بأن سـمى كتاب ابن إسحاق كتاب المغازى . ثم أخذت فكرة الكتابة فـــى هـــذا المجال تنمو وتتطور حتى شملت حياة الرسول كلها والتأريخ للدعـــوة والدولة الإسلامية فى عهده ﷺ وهذا ما يفهمه الناس الآن إذا تحدثـــوا عن السيرة النبوية .

متى ألف ابن إسحاق ؟

الرواية المشهورة أن محمد ابن إسحاق ألف كتابـــه ــ الســـيرة والمبتدأ والمغازى ــ فى العراق بتكليـــف مـــن الخليفـــة العباســـى المشهور أبى جعفر المنصـــور ، فـــالبغدادى فـــى تـــاريخ بغـــداد ،

وابن خلّكان فى وفيات الأعيان[1] وغيرهمـــا ممـــن ترجـــموا لابـــن إسحاق، يروون أنه وفد على أبى جعفر المنصور ، فـــى الحـــيرة ، وذلك قبل أن يتم بناء بغداد وينتقل إليها المنصـــور ــ ولقـــد انتقـــل المنصور إلى بغداد واتخذها عاصمة لدولته سنة ١٤٥هـ ــ وبينمـــا كان ابن إسحاق عند المنصور ، دخل عليه محمد بـــن المنصـــور ــ الذى لقب بالمهدى بعد أن أصبح خليفة بعـــد وفـــاة أبيـــه ــ فقـــال المنصور لابن إسحاق ؛ أتعرف هذا يا ابن إسحاق ؟ قال نعم : هـــذا ابن أمير المؤمنين . قال : أذهب فصنف له كتاباً منـــذ خلـــق الله آدم عليه السلام ، إلى يومناً هذا ، فذهب فصنف له هذا الكتـــاب ، فقـــال المنصور لقد طولته يا ابن إسحاق ، فاذهب فاختصره ، فـــاختصره ، فهو هذا الكتاب المختصر ، وألقى الكتاب الكبير فـــى خزانـــة أمـــير المؤمنين .

معنى هذا أن سيرة ابن هشام التى بيـــن أيدينـــا ، والتـــى هـــى تلخيص لسيرة ابن إسحاق الأصليـــة ، هـــى تلخيـــص التلخيـــص ، أو مختصر المختصر ، وأن الكتاب الأصلى كان كبير الحجـــم جـــداً ولم يصل إلينا لسوء الحظ ــ حتى تلخيص ابن إسحاق الأصلـــى لـــم يصل إلينا كاملا حتى الآن ، وإن كنا ســـمعنا أنـــهم عـــثروا عليـــه مخطوطًا فى المملكة المغربية ولكنهم يتكتمون أمـــره ، وحتـــى الآن

(١) انظر : تاريخ بغداد ، جـ ١، ص ٢٢٠ ــ ووفيات الأعيان ، جـ ٤ ، ص ٢٧٧.

لا نعرف ما إذا كانوا عثروا عليه حقيقة أم لا ، وإذا كـــانوا عــثروا عليه هل نشروه أم لا . وكل ما نعرف منه هو ما جاءنا عن طريـــق ابن هشام والذى يعرفه الناس الآن بسيرة ابن هشام والرواية الســـابقة عن تكليف أبى جعفر المنصور لابن إسحاق بكتابة كتاب فى التـــاريخ من بدء الخليفة إلى وقته هى المشهورة ، ومع شهرتها فــــإن النفـــس لا تطمئن إليها ، بل يمكننا أن نقول إن محمد ابن إسحاق قـــد ألـــف كتابه ، أو وضع أصوله على الأقل قبل أن يغادر المدينة المنورة إلى العراق وذلك للأسباب الآتية :

أولاً :

تنص تلك الرواية المشهورة ــ التى أوردهـــا البغــدادى وابـــن خلكان وغيرهما ــ على أن الخليفة أبا جعفر المنصور طلب من ابـــن إسحاق أن يؤلف لابنه وولى عهده ــ محمد المهدى ــ كتابا منذ خلـق الله آدم إلى وقته الذى هو فيه ، وذلك الوقت وإن لم يحدد بدقة ، فـــهو بالتأكيد بعد سنة ١٣٦هـــ ، وهى السنة التى تولى فيها أبـــو جعفـــر المنصور الخلافة ــ بعد وفاة أخيه أبى العباس السفّاح ــ وإذا كــــان الأمر كذلك ، فلماذا توقف ابن إسحاق بالكتاب عند وفاة الرســـولﷺ ولم يضمنه شيئًا سوى سيرة الرسولﷺ ، إلا ما كان من حديثه عـــن مؤتمر السقيفة ، وبيعة الخليفة الأول أبى بكر الصديق رضى الله عنه وهى أمور من النتائج المباشرة لوفاة الرسول ﷺ .

ثانيًا :

إن كتاب ابن إسحاق الأصلى الذى اختصره ابـن هشـام كـان يحتوى على أخبار ما كان يرضى عنـها العباسـيون ؛ بـل كـانوا يستاءون منها ، مثل مشاركة جدهم العباس بن عبـد المطلـب فـى معركة بدر فى صفوف المشركين ضد النبىﷺ ووقوعه فى الأسـر ، وفداؤه نفسه بقدر كبير من المال ، ورغم ما روى من أن الرسـولﷺ قال عن العباس إنه خرج مكرها ، بل نـهى عـن قتلـه — إلا ان العباسيين كانوا يستاءون جدا من تلك القصة — التـى ذكرهـا ابـن إسحاق فى كتابه الأصلى — ونحن عرفنا ذلك من روايـة العلمـاء الذين أخذوا عن الأصل ، مثل الطبرى — ولذلك حذفها ابـن هشـام عند تلخيصه لسيرة ابن إسحاق إرضاء للعباسيين ، وتحاشى ذكرهـا فى كتاباته كل من محمد بن عمر الواقدى ، وكاتبه محمد بـن سـعد لنفس السبب وهو كراهية العباسيين لذكرها .

لذلك لو كان ابن إسحاق قد ألف كتابه بأمر أبى جعفر المنصـور لكان من المستبعد أن يذكر هذه القصة ، وهو يعلم أن الخليفة يسـتاء من ذكرها . لذلك نرجح أن أصول الكتاب وضعت فى المدينة .

ثالثًا :

إننا نجد من بين تلاميذ محمد ابن إسحاق الذين رووا عنه كتاب المغازى ، تلميذا مدنيًا ؛ هو إبراهيم بن سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف ، الإمام الحافظ ، قاضى المدينة [1].

ولم يعرف عنه أنه غادر المدينة إلى العراق وأقام بها إقامة طويلة مكنته من رواية ونسخ كتاب أستاذه . والأقرب إلى المنطق — والحالة هذه — أن يكون إبراهيم بن سعد قد روى عن أستاذه أصول الكتاب ، وهو فى المدينة ، وقبل أن يغادرها إلى العراق . ومن الطبيعى أن يكون محمد بن إسحاق قد حمل معه نسخة من كتابه فى رحلته إلى العراق ، حيث رواه عنه تلاميذه العراقيون ، ومنهم زياد ابن عبد الله البكائى ، الذى روى عنه عبد الملك بن هشام السيرة ولخصها ونسبت إليه ، بل طغت تلك النسبة على صاحب الكتاب الأصلى ، وعرفه الناس بسيرة ابن هشام .

رابعًا :

لم يرو ابن إسحاق فى كتابه عن أحد من علماء العراق — وهم كثيرون فى ذلك الوقت — إذ يتضح من قائمة الرواة الذين روى عنهم ، وذكرهم بأسمائهم بل بأنسابهم ، أنه ألف كتابه واستقى مادته

---

(١) انظر تذكرة الحفاظ للذهبى جـ ١ ص ٢٥٢ — ٢٥٣.

العلمية على أساس الأحاديث والروايات التى جمعها فى المدينة خاصة على أساس الأحاديث والمعلومات التى جمعها فى مصر — عندما زارها — فقد حرص على الأخذ من علماء مصر ؛ خصوصا أشهرهم يزيد بن أبى حبيب ، وسجل ذلك . وبالمقابل لو كان ألف كتابه فى العراق ، لكان من المحتمل جدًا أن يجد هناك من العلم ما يستحق أن يضيفه ويسجله فى كتابه — كما فعل فى مصر — ولكنه لم يفعل ، فدل خلو الكتاب من أى ذكر لعلماء العراق على أنه كتب فى المدينة المنورة ، وقبل أن يغادرها ابن إسحاق إلى العراق ويلتقى بالخليفة أبى جعفر المنصور ويتلقى منه الأمر بالتأليف — والله أعلم — .

محتويات الكتاب :

ذكرنا فيما سبق أن كتاب ابن إسحاق لم يصل إلينا بنصه الأصلى ، ولم يطبع حتى الآن — حسب علمنا — وإنما وصل إلينا برواية عبد الملك بن هشام عن رواية زياد بن عبد الله البكائى عن ابن إسحاق .

وابن هشام عندما تناول كتاب ابن إسحاق لم ينقله كما هو ، وإنما أجرى فيه تعديلات كثيرة ؛ بالحذف تارة ، وبالإضافة تارة أخرى — وأحيانًا — بتغيير العبارة . وندع ابن هشام نفسه يوضح لنا صنيعه فى الكتاب ؛ فهو يقول : " وأنا — إن شاء الله — مبتدئ

هذا الكتاب بذكر إسماعيل بن إبراهيم — ومن ولد رسول الله ﷺ من ولده وأولادهم لأصلابهم ؛ الأول فالأول ، من إسماعيل إلى رسول الله ﷺ وما يعرض من حديثهم ، وتارك ذكر غيرهم من ولد إسماعيل على هذه الجهة ، للاختصار ، إلى حديث رسول الله ﷺ ، وتارك بعض ما ذكره ابن إسحاق فى هذا الكتاب ، مما ليس لرسول الله ﷺ ، فيه ذكر ، ولا نزل فيه من القرآن شيء وليس سببا لشيء من هذا الكتاب ، ولا تفسيرا له ، ولا شاهدا عليه ، لما ذكرت من الاختصار ، وأشعار ذكرها — يقصد ابن إسحاق — لم أر أحدا من أهل العلم بالشعر يعرفها ، وأشياء بعضها يشنع الحديث به ، وبعض يسوء بعض الناس ذكره — ولعل ابن هشام يقصد بذلك مثل حادثة حضور العباس بن عبد المطلب معركة بدر فى صفوف المشركين مما كان يستاء منه العباسيون ، وقد أشرنا إلى ذلك من قبل — وبعض لم يقر لنا البكائى بروايته ، ومستقصى إن شاء الله ما سوى ذلك ، بمبلغ الرواية له ، والعلم به (١) .

هذه هى خطة ابن هشام ومنهجه فى تناوله لسيرة ابن إسحاق ، كما شرحه بنفسه . ولابن هشام الفضل كل الفضل ، فى حفظ هذا السفر الخالد عن سيرة رسول الله ﷺ ومغازيه ، إذ لولاه لكان من

(١) سيرة ابن هشام جـ١ ، ص٢ ، تحقيق فضيلة الشيخ المرحوم محمد محيى الدين عبد الحميد.

المحتمل أن تفقد تلك الثروة العلمية الكبيرة عن موضوع من أجل وأعظم موضوعات العلوم الإسلامية ، فعلى كل طالب علم مسلم أن يحييَّ ابن هشام وأن يستغفر الله له ويطلب له الرحمة على هذا العمل الجليل ، وتلك المكرمة العلمية التى طوّق بها أعناق العلماء .

وإذا كان ابن هشام قد اضطر — كما قال — لحذف أشياء من أصل الكتاب — للدواعى والأسباب التى ذكرها — فإنه لمن حسن حظنا أن كثيرًا مما حذفه ابن هشام ، ذكره المؤرخون الآخرون فى كتبهم — وبصفة خاصة عمدة المؤرخين المسلمين وإمامهم محمد بن جرير الطبرى — وقد قام أحد الباحثين الأوروبيين المحققين ؛وهو الأستاذ يوسف هوروفيتش بتلخيص محتويات سيرة ابن إسحاق الأصلية ، فى ضوء نص سيرة ابن هشام ، إضافة إلى النصوص التى ذكرها المؤرخون الآخرون ، وفى كتابه المعنون : " المغازى الأولى ومؤلفوها — وهذا الكتاب القيم هو مرجعنا الأساسى فى تلك المعلومات ، فمؤلفه يقول : " وإذا عنينا بهذه الفقرات المحفوظة فى مقتطفات ليست فى نص ابن هشام ، وصلنا إلى الصورة التالية لمنهج ابن إسحاق .

أ — التاريخ الجاهلى : وهو القسم الأول من كتاب ابن إسحاق ، والذى يسميه المبتدأ — الذى ينقسم إلى أربعة فصول ، يتناول أولها الوحى قبل الإسلام ، منذ خلق الله العالم ، حتى عيسى

عليه السلام ، وقد لقى هذا الفصل الحظ الأوفر من إعـــراض ابـــن هشام .

ولما كان ابن إسحاق معنيا فى كل مكان بالتاريخ السنوى ، أعـد هذا الفصل أيضًا مثل هذه الإحصاءات ، وعنى بروايات وهب مـــن منبه ، وروايات ابن عباس ، وأخبار الأدباء اليـــهود والمســيحيين ، ونص الكتاب المقدس نفسه ، إلى جانب رجوعه للقـــرآن . ويظـــهر فيه إلى جانب رجال الكتاب المقدس القبائل العربية ، من عاد وثمـــود بالذين أرسل الله إليهم رسله ، كما يقول القرآن الكريم ، ولكنه يذكـــر أيضًا طسمًا وجديسًا ؛ وهما غير مذكورتين فى القرآن .

ويتناول الجزء الثانى من المبتدأ الذى حفظت مادته فـــى كتـــاب ابن هشام ، والذى يمكن تكميله من الطبرى أيضًا تاريخ اليمـــن فـــى العصور الجاهلية .

ويتناول الفصل الثالث من المبتدأ القبــــائل العربيـــة وعبادتـــها الأصنام . ويتناول الفصل الرابع أجداد النبىﷺ والديانات المكية .

ب ـــ المبعث :

ويشمل تاريخ حياة النبى ﷺ فى مكة ، والهجرة ، وربما شـــمل العام الأول من نشاطه فى المدينة ، ويكثر فـــى هـــذا الجـــزء عـــدد الأسانيد وجل اعتماد ابن إسحاق فيه على روايات أساتذته المدنييـــن ،

التى يبرزها فى نظام سنوى ، وهو يقدم الأخبار الفردية بموجز حاوٍ لمحتوياتها فى الغالب ، وفى هذا الجزء إلى جانب القصص التى يوردها بإسناد أو بغير إسناد ، توجد وثيقة على جانب كبير من الأهمية دونها ابن إسحاق وحده ، ولم يذكرها أحد من كتاب المغازى الأولين تلك الوثيقة هى معاهدة المدينة المشهورة ــ التى وقعها النبى ﷺ مع قبائل المدينة ، وهى المسماة بنظام مجتمع المدينة ويسميها بعض الكتاب المحدثين ، دستور المدينة ، وكذلك يوجد بهذا الجزء من سيرة ابن إسحاق مجموعات كاملة من القوائم بأسماء الرجال ، منها قائمة بأسماء المؤمنين الأولين وقائمة بأسماء المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة ، وقائمة بأسماء أول من أسلم من الأنصار ، وقائمة بأسماء الذين اشتركوا فى بيعة العقبة ، وقائمة بأسماء المهاجرين والأنصار الذين تلقوهم فى المدينة ، وقائمة بأسماء المهاجرين والأنصار الذين آخى بينهم النبى ﷺ .

جـ ــ المغازى :

الجزء الثالث والأخير من كتاب ابن إسحاق ــ والذى يسمى المغازى هو تأريخ لحياة النبى ﷺ فى المدينة منذ أول يوم إلى أن لحق بالرفيق الأعلى فى الثانى عشر من ربيع الأول سنة ١١ هـ ــ إضافة إلى بعض الأحداث التى ترتبت على وفاته ﷺ مثل مؤتمر

سقيفة بنى ساعدة ، الذى ناقش فيه الصحابة من المهاجرين والأنصار مسألة الخلافة ، والذى انتهوا فيه إلى بيعة أبى بكر الصدّيق خليفة لرسول الله ﷺ فى حكم الأمة الإسلامية . ولم يكد ابن إسحاق يترك شيئًا من أعمال النبى ﷺ فى المدينة ، بدءاً من تأسيس مسجده والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار — طبعًا جل المؤاخاة كانت بين المهاجرين والأنصار — لكن كانت إلى جانب ذلك مؤاخاة بين مهاجر ومهاجر ومؤاخاته ﷺ مع على بن أبى طالب ، وكمؤاخاة عمه حمزة ابن عبد المطلب مع مولاه زيد بن حارثة — وهم مهاجرون ، إضافة إلى معاهدة المدينة ، وهذه الثلاثة ، بناء المسجد والمؤاخاة والمعاهدة يعتبرها المؤرخون أهم أركان وأسس الدولة الإسلامية ، التى أقامها الرسول ﷺ فى المدينة بعد الهجرة ، ثم تنتشر فى هذا الجزء من كتاب ابن إسحاق أخبار غزوات الرسول ﷺ بشكل تفصيلى وكل ما يتعلق بذلك من تشريع أخبار وأحكام ، كما تنتشر فيه أيضًا أخبار النبى الشخصية خاصة أزواجه وعلاقاته بهن ، وهكذا إلى أن وصل إلى مرض ووفاة النبى ﷺ . فعالج كل ذلك بتفصيل واف والقاعدة الرئيسية هنا هى وجود الإسناد ، ومصادر ابن إسحاق فى كل ذلك شيوخه المدنيون ، وأهمهم محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى ، وعاصم بن عمر بن قتادة الأنصارى ، وعبد الله بن أبى بكر بن محمد بن عمرو ابن حزم الأنصارى : الذى يدين له

ابن إسحاق بالنظام السنوى فى ترتيب الأحداث ، وإضافة إلى هؤلاء الشيوخ الكبار فإن ابن إسحاق أخذ كثيرًا عن غيرهم ، خاصة من أقارب الرجال والنساء الذين اشتركوا فى الحوادث ، وسمعوا منهم ، وأدوا ما سمعوه لابن إسحاق وغيره ويستخدم ابن إسحاق منهجا واضحًا ومحددًا فى عرض غزوات الرسول ﷺ فيقدم مخلصًا للمحتويات فى المقدمة ، ثم يتبع ذلك بخبر جماعى مؤلف من أقوال وروايات أوثق شيوخه ، ثم يكمل هذا الخبر الرئيسى بالأخبار الفردية التى حصل عليها من مصادر أخرى ، وقوائم الأسماء فى هذا الجزء من الكتاب كثيرة ، ويوردها غالبًا باكتسابها ، ففيه قائمة وافية بأسماء الذين اشتركوا فى غزوة بدر الكبرى ، وقائمة بأسماء الذين استشهدوا من المسلمين ، وقائمة بأسماء الذين قتلوا من المشركين وأخرى بأسماء الأسرى . وقائمة بأسماء قتلى أحد والخندق وخيبر والطائف ، وقائمة بأسماء المهاجرين الذين رجعوا من الحبشة مع جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه .

كيف وصل إلينا كتاب ابن إسحاق ؟

ذكرنا — آنفا — أننا نرجح أن ابن إسحاق قد كتب كتابه — أو وضع أصوله على الأقل — فى المدينة المنورة وقبل أن يغادرها إلى العراق وقلنا إن أحد تلاميذه المدنيين — وهو إبراهيم ابن سعد ابن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف — روى عنه الكتاب ، ولكن

كان لابن إسحاق حوالى خمسة عشر تلميذًا آخرين ، كلهم رووا كتاب شيخهم ، منهم مسلمة بن الفضل المتوفى عام ١٩١هـ والذى اعتمد عليه الطبرى كثيرًا فيما يرويه عن ابن إسحاق ، ومنهم يونس ابن بكير المتوفى عام ١٩٩هـ ، والذى اعتمد على روايته عن ابن إسحاق ، كل من الحاكم فى المستدرك فى الفصل الخاص بالمغازى ، وابن الأثير فى أسد الغابة ، وابن حجر فى الإصابة ويبدو أن كل النسخ التى كتبها تلاميذ ابن إسحاق العراقيين أو كانت عندهم قد ضاعت ، أو تلفت ما عدا نسخة واحدة ، هى نسخة زياد بن عبد الله البكائى التى كتب لها الخلود على يدى عبد الملك بن هشام .
ويبدو كذلك أن الكتاب الأصلى لابن إسحاق ظل مصدرًا للأخذ منه والاعتماد عليه عدة قرون ، فرغم سرعة وسعة انتشار ملخص ابن هشام – الذى أخذه من رواية زياد البكائى – لدرجة أن اليعقوبى ؛ المتوفى سنة ٢٩٢هـ قد استخدمه . فإن الكتاب الأصلى ظل متداولاً بعد ذلك طويلاً ، إلى وقت ابن حجر العسقلانى المتوفى سنة ٨٥٢هـ ؛ فزياد بن عبد الله البكائى هو الذى أسدى إلينا هذه الخدمة الجليلة وحفظ كتاب أستاذه ابن إسحاق وأتاح لابن هشام أن يوصله لنا ، فمن حقه علينا أن نُعَرِّف به لتعرفه الأجيال ، فمن هو زياد بن عبد الله بن الطفيل بن عامر القيسى . البكائى العامرى ، وكان يكنى

بأبى محمد ، ويقال بأبى يزيد الكوفى ، ولـد وعـاش وتوفـى فـى الكوفة ، ونسبه إلى عامر بن صعصعة [1].

روى عن عبد الملك بن عمير ، وحميـد الطويـل ، وعـاصم الأحول ، والأعمش ، ومحمد بن إسحاق ، وروى عنه جماعة مـن الأعلام ، وأكابر العلماء والمحدثين ، منهم الإمام أحمد بن حنبـل ، وأحمد بن عبده الضبىّ ، وأبو غسّان المهدى ، وإسماعيل بن توبـه ، ويوسف بن حماد ، وعمرو بن زرارة ، وعبـد الملـك بـن هشـام السدوسى النحوى ، صاحب السيرة ، وقد أثنى على البكـائى طائفـة من العلماء ، وأجمعوا على أن روايته لكتاب المغـازى عـن ابـن إسحاق هى من أصح الروايات .

قال يحيى بن آدم عن ابن إدريس : " ما أحد أثبـت فـى ابـن إسحاق منه ، لأنه أملى عليه إملاء مرتين" . وقال صالح بن محمـد : ليس كتاب المغازى . عند أحد أصح منه عند زياد .. وذلك أنه بـاع داره وخرج يدور مع ابن إسحاق ، حتى سمع منه الكتاب " [2] . هـذا باختصار شديد هو زياد بن عبد الله البكائى ، ويكفى أنه مـن حبـه

(١) انظر ترجمة زياد البكائى فى تهذيب التهذيب لابن حجر ، جـ٣ ، صـ ووفيات الأعيان لابن خلكان ، جـ٢ ، صـ٣٣٨ .

(٢) انظر سيرة ابن هشام ، جـ١ ، صـ٢٩ من ترجمة المحقق فضيلة الشيخ المرحوم محمد محى الدين عبد الحميد لابن هشام .

للعلم — خاصة مغازى رسول الله ﷺ قد باع بيته وفرَّغَ نفسه لرواية سيرة النبى ، من رائدها الأول ؛ محمد بن إسحاق ، وقد توفى البكائى — رحمه الله تعالى سنة ١٨٣هـ — بعد أن أدى الكتاب إلى من أوصله إلينا ، والذى من حقه علينا كذلك أن نخصه بكلمة ، تقدير وتحية ، وهو **أبو محمد عبد الملك بن هشام** : ابن أيوب المعافرى **البصرى المصرى** ؛ فقد ولد ابن هشام فى مدينة البصرة بالعراق ، وفيها نشأ ودرج ، وتتلمذ على علمائها ونهل من علمهم ، وبعد أن تزود من علم علماء العراق ، وتوج ذلك برواية السيرة عن أستاذه زياد بن عبد الله البكائى الذى أملاها عليه بنفسه ؛ بعد ذلك رحل إلى مصر ، التى كانت الحركة العلمية فيها آنذاك فى أوج ازدهارها ، بجهد علمائها ، ومن وفد إليهم من علماء الأقطار الأخرى ، وعندما وصل ابن هشام إلى مصر كانت سماؤها قد ازدانت بنجم ثاقب من نجوم العلم والفقه ؛ وهو عالم قريش — الذى ملأ طباق الأرض علماً — محمد بن إدريس الشافعى ، الذى التقى به عبد الملك بن هشام ، وتدارس معه العلمِ والأشعار ، فقد كان كلاهما شاعرًا ، فوق تبحرهما فى العلوم الأخرى .

وقد قضى ابن هشام فى مصر بقية حياته ، وقد أثرى — رحمه الله تعالى — المدرسة المصرية فى علوم كثيرة ، مثل النحو واللغة وعلم الأنساب ناهيك عن درته الخالدة ، سيرة رسول الله ﷺ — ذلك

الكتاب القيم ، الذى ظل مخطوطا إلى أن قيض الله له الأستاذ وستنفيلد فقام على تحقيقه ، وطبعه فى مدينة جوتنجن بألمانيا سنة ١٨٥٩م . ومنذ أن ظهر مطبوعًا عرف الناس قيمته ، وتوجهت إليه أنظار الباحثين والمهتمين بسيرة رسول الله ﷺ وانتشر انتشارًا واسع النطاق فى ربوع العالم الإسلامى من أقصاه إلى أقصاه .

وتوالت طبعاته بعد ذلك ، فطبع فى مطبعة بولاق ، وظهرت له أكثر من طبعة محققة ، من أهمها تلك التى حققها فضيلة الشيخ المرحوم محمد محي الدين عبد الحميد ــ عميد كلية اللغة العربية الأسبق ــ وأحد كبار العلماء ، ومن الذين لهم فى مجال التحقيق باع طويل . كذلك من الطبقات المحققة تحقيقًا جيدًا تلك التى قام بتحقيقها الأستاذ مصطفى السقا وزملاؤه .

وبعد فهذا هو محمد بن إسحاق ــ أحد أعلام الطبقة الثالثة ــ بل رأس تلك الطبقة من كتاب المغازي والسير ، والرائد الأول للكتابة المنظمة المنهجية فى سيرة رسول الله ﷺ ، وهذا هو كتابه الخالد الذى لم يسبقه أحد إلى مثله ، والذى أصبح الأصل الأصيل لكل من كتب فى السيرة النبوية منذئذ إلى وقتنا هذا . وسيظل هو المرجع الأساسى فى علوم السيرة .

ولا أظن أن هذا البحث يكتمل دون أن يتضمن تعريفًا بعلمين آخرين من أعلام كتابة المغازى والسير ، وهما محمد بن عمر الواقدى وتلميذه وكاتبه محمد بن سعد .

الواقدى :

هو محمد بن عمر بن واقد ــ الملقب بلقبه المشهور الواقدى ــ وهو مولى من الموالى ، قيل مولى بنى هاشم ، وقيل مولى بنى سهم ابن أسلم .

يعتبر الواقدى ــ عند العلماء ــ [1] الثانى بعد ابن إسحاق فى سعة العلم بالمغازى والسير . وقد ولد الواقدى بالمدينة المنورة سنة ١٣٠هـ وتوفى سنة ٢٠٧هـ ببغداد ، ودفن فى مقابر الخيزران ، حسب رواية تلميذه محمد بن سعد ، وقد لقى كثيرًا من الشيوخ وأخذ عنهم العلم مثل معمر بن راشد ، ومالك بنى أنس ــ الإمام المشهور ــ وسفيان الثورى ، ومن أشهر شيوخه فى السير والمغازى والتاريخ أبو معشر السِّندى ، الذى وصفه الإمام أحمد بن حنبل بأنه كان بصيرًا بالمغازى [2] . وقد ألف فيها كتابًا ذكره ابن النديم فى الفهرست ، اقتبس منه ابن سعد فى كتابه الطبقات الكبرى فى الجزء الخاص بالسيرة النبوية وكذلك الطبرى . وقد استفاد الواقدى كثيرًا

(١) انظر ضحى الإسلام ، جـ٢ ، صـ٣٣٣ .
(٢) انظر ضحى الإسلام جـ٢ صـ٣٣٣ .

من علم أبى معشر خاصة فى المغازى والتاريخ عندما تتلمذ عليه وهو فى المدينة [1] .

وقد اتصل الواقدى بالخلفاء العباسيين ، بدءًا من هارون الرشيد عن طريق علمه وسعة معلوماته عن الغزوات ومشاهد رسول الله ﷺ ، فقد روى أن أمير المؤمنين هارون الرشيد لما حجّ فى أول سنة من خلافته سنة ١٧٠هـ . قال ليحيى بن خالد البرمكى : " ارتد لى رجلاً عارفًا بالمدينة والمشاهد ، وكيف كان نزول جبريل عليه السلام على النبى ﷺ ، ومن أى وجه كان يأتيه ، وقبور الشهداء ، فسأل يحيى بن خالد عن العالم الذى تتوفر فيه تلك الصفات التى طلبها الخليفة فدله الناس على الواقدى ، وذلك حسب قوله هو — أى الواقدى — فقد قال : " كلهم دلّه علىّ ، فبعث إلىّ فأتيته ، وذلك بعد العصر ، فقال لى يا شيخ ! إن أمير المؤمنين — أعزه الله — يريد أن تصلى العشاء الآخرة فى المسجد ، وتمضى معنا إلى هذه المشاهد ، فتوقفنا عليها ففعلت ، ولم أدع موضعًا من المواضع ، ولا مشهدًا من المشاهد إلا مررت بهما — يعنى الخليفة هارون الرشيد ووزيره يحيى بن خالد البرمكى — عليه ، ومنحاه مالاً كثيرًا وطلب إليه يحيى بن خالد البرمكى — الذى كانت كلمته نافذة فى الدولة العباسية كلها فى ذلك الوقت — أن يصير إليه فى العراق ، ففعل ، وتوطدت صلته

---

(١) انظر ضحى الإسلام ، جـ٢ ، صـ٣٣٣ .

به وأغدق عليه كثيرًا من الأموال وأخلص هو في حبه للبرامكة ، حتى أنه بعد نكبتهم المشهورة سنة ١٨٧هـ . كان كثير الترحم على يحيى بن خالد كلما ذكر اسمه .

ورغم صلة الواقدى القوية بالبرامكة إلا أن مكانته في بلاط خلفاء بنى العباس ظلت كما هى ولم ينله ضرر بسبب تلك الصلة بعد نكبتهم . بل ازدادت مكانته وثقة الخلفاء فيه إلى الحد الذى جعل المأمون يوليه القضاء فى عسكر الهدى ، وهى المحلة المعروفة بالرصافة في شرق بغداد . وكان المأمون كثير الإكرام له ، ويداوم على رعايته وظل فى منصب القضاء حتى وفاته سنة ٢٠٧هـ على أرجح الأقوال .

وقد نبغ الواقدى فى علم المغازى والسير والتاريخ الإسلامى بصفة عامة ، قال عنه البغدادى : " وهو ممن طبق شرق الأرض وغربها ذكره ، ولم يخف على أحد عرف أخبار الناس أثره ، وسارت الركبان بكتبه فى فنون العلم ؛ من المغازى والسير والطبقات ، وأخبار النبى ﷺ والأحداث التى كانت فى وقته ، وبعد وفاته ﷺ وكتب الفقه ، واختلاف الناس فى الحديث وغير ذلك "[(١)]. وحدَّث هو عن نفسه فقال : " ما أدركت رجلاً من أبناء الصحابة وأبناء الشهداء ولا مولى لهم إلا سألته ، هل سمعت أحدًا من أهلك

---

(١) انظر تاريخ بغداد ، جـ٣ ، صـ١ .

يخبرك عن مشهده وأين قتل ؟ فإذا أعلمنى مضيت إلى الموضع فأعاينه ، ولقد مضيت إلى المريسيع فنظرت إليها ، وما علمت غزاة إلا مضيت إلى الموضع فأعاينه " (١) .

وكان الواقدى غزير الإنتاج كثير التأليف حتى عد له ابن النديم ما يقرب من أربعين كتابًا معظمها فى المغازى والسير والتاريخ ، ــ تاريخ الفتوح بصفة خاصة ــ وقال ابن النديم " خلّف الواقدى بعد وفاته ستمائة قمطر كتبا ، كل قمطر منها حمل رجلين وكان له غلامان مملوكان ، يكتبان الليل والنهار ، وقبل ذلك بيع له كتب بألفى دينار " (٢) .

وكانت كتب الواقدى مصدرًا أصيلاً لكل المؤرخين الذين جاءوا بعده فما من مؤرخ إلا واقتبس من كتبه ، مثل اقتباسات الطبرى من كتاب التاريخ الكبير .

ولكن لسوء الحظ ضاعت معظم هذه الثروة العلمية التى خلفها الواقدى ولم يبق من كتبه إلا عدد قليل ، منها كتاب فتوح الشام ، وكتاب المغازى ، وقد ذكر فى أوله شيوخه الذين أخذ عنهم علم المغازى فأوصلهم إلى خمسة وعشرين شيخًا ، ومعظمهم من أهل المدينة .

---

(١) المصدر السابق ، جـ٣ ، صـ٦ .

(٢) الفهرست لابن النديم ، صـ ١٤٤ .

ومغازى الواقدى أكثر إخبارًا عن سيرة النبى ﷺ فى المدينة وهو أميل فى أخباره إلى الفقه والحديث من ابن إسحاق ، وهو أحيانًا يرجع إلى مادة علمية مكتوبة فى صحف رآها واعتمد عليها . فقد قال تلميذه وكاتبه ابن سعد " قال الواقدى حدثنى عبد الله ابن جعفر الزهرى قال : وجدت فى كتاب أبى بكر بن عبد الرحمن بن المسور .. وقال محمد بن عمر — الواقدى — نسخت كتاب أهل أذرح فإذا فيه .. إلخ ويمتاز عمن سبقه بالدقة فى تعيين تاريخ الحوادث [1] . ومن المآخذ التى أخذها العلماء على الواقدى أن صلته بالخلفاء العباسيين قد أثرت فى أمانته العلمية ، فأعرض عن ذكر الأحداث التى تغضبهم ، أو لا يرضون عنها ، ومن أمثلة ذلك حذف اسم العباس بن عبد المطلب عم النبى ﷺ ، من جملة أسماء الذين شاركوا فى معركة بدر من مشركى مكة ، ووقعوا أسرى فى يد المسلمين .

رأى العلماء فى الواقدى :

اختلف علماء الحديث حول الواقدى اختلافًا كبيرًا ، بين معدّل له وبين مجرّح — وقد حكى الخطيب البغدادى أقوالهم [2] على

(١) ضحى الإسلام ، جـ٢ ، صـ ٣٣٦ .

(٢) انظر تاريخ بغداد ، جـ٣ ، صـ ٧ .

اختلافها ، وملخصها أن الإمام مالك بن أنس كان يثق فى رواياتــه ــ بينما كان لا يثق فى روايات ابن إسحاق كما سبق ذكره ــ وكذلـــك كان يثق فى الواقدى من فقهاء الحنفية ، محمد بن الحسن الشـيبانى ، بل لقبّه بأمير المؤمنين فى الحديث ــ وذلك قبل أن يصبح هذا اللقـب مقصوراً على الإمام البخارى فيما بعد . ووثق به من فقهاء الشـافعية القاسم بن سلام .

أما الذين طعنوا عليه فمنهم ، على بن محمد المدينى ومن أقوالــه فيه " عند الواقدى عشرون ألف حديث لم يسمع بها " وقال عنه يحيـى ابن معين " أغرب الواقدى على رسول الله ﷺ عشرين ألف حديـث " وقال عنه أحمد بن حنبل : " الواقدى يركّب الأسانيد " .

والظاهر أن مطاعن المحدثين عليه كمطاعنهم على غـيره مـن كتاب المغازى والسير ، لاختلاف المنهج بين الطائفتين . فهو لم يكن يتقيد بمذهبهم من ناحيتين :

الأولى : أنه كان يأخذ من الصحف ، ويعتمـد علـى الكتـب ، وثقات المحدثين كانوا يكرهون تلك الطريقة أشد الكراهية ، ويـرون أنه لا يصح للمحدث أن يحدّث بحديث إلا إذا كان قد سـمعه بأذنـه ممن روى عنه ، **الثانية** : أنه كان يجمع الأسانيد المختلفـة ويجيـئ بالمتن واحدا ، مع أن جزءاً من المتن لبعض الرواة ، وجزءاً آخـر

لرواة آخرين ، وكان المحدّثون يعدون هذا عيباً ، وقد عـــابوا ذلــك على الزهرى وتلميذه ابن إسحاق من قبل .

وكان عذر الواقدى لاستعماله تلك الطريقة ، أنه لو أفـــرد كــل حديث بسنده لطال الأمر جدًا ، فقد روى أنـــه لمـــا طالبـــه تلاميـــذه بإفراد كل حديث بسنده ، أراد أن يبرهن لهم على ســـلامة منهجـــه ، فجاءهم بالأحاديث الخاصة بغزوة أحد باتباع إفراد كل حديث بســـنده فاستكثروا ذلك ، وقالوا ردَّنا إلى الأمر الأول [١] .

والخلاصة ، أنه مهما كان من أمـــر اختـــلاف العلمـــاء حـــول الواقدى ــ والناس لا يختلفون عادة إلا على الأشياء الكبيرة ــ فقـــد كان واسع العلم بالمغازى والسير ، كما كان عالمًا بالفقـــه والحديـــث والتفسير ، وكان من أكبر المصادر التى عول عليها واعتمدها كبـــار المؤرخين ، خاصة الطبرى . وقد سبق أن ابن النديم عَـــدَّ للواقـــدى ما يقرب من أربعين كتاباً فى مختلف العلوم الإسلامية ، أشهرها فـــى السير والمغازى ، والفتوح ، كفتوح الشام ، وفتوح العراق . فرحمـــه الله وجزاه عن العلم خير الجزاء .

---

(١) انظر تاريخ بغداد جـ٣ صـ٧ ، وضحى الإسلام جـ٢ صـ٣٣٧ .

محمد بن سعد :

يعتبر محمد بن سعد آخر الكتاب الكبار فى المغازى والسير ، وهو من مواليد البصرة سنة ١٦٨هـ ، وكان من الموالى ؛ فآباؤه كانوا موالى للحسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس بن عبد المطلب ، وقد رحل ابن سعد إلى المدينة المنورة ، ثم إلى بغداد ، حيث اتصل بأستاذه محمد بن عمر الواقدى ، وارتبط به ارتباطًا وثيقاً ، وكان يدّون له كتبه وأحاديثه [1] ، ومن أجل ذلك اشتهر بأنه كاتب الواقدى ، واستفاد ابن سعد من أستاذه فائدة كبرى ، ومعظم كتبه التى ألفها استقاها من علمه — وليس معنى هذا أنه لم يستفد من علم غيره ، فقد استفاد كثيرًا من علماء آخرين سبقوا الواقدى كابن إسحاق وأبى معشر السندى ، وموسى بن عقبة ، وغيرهم — وكما استفاد ابن سعد من علم أستاذه ، فقد كان هو نفسه صاحب فضل كبير فى ترتيب علم أستاذه ، وكثيرًا ما كان يزيد عليه ، فقد كان يكمل ما كان ينقص الواقدى من أخبار الجاهلية ، وقد استعان فى ذلك بعلم هشام الكلبى ، الذى كان حجة فى أخبار الجاهلية وقد خلف لنا ابن سعد واحدًا من أهم وأشهر المصادر الإسلامية ، فى السير والمغازى ، وأخبار الصحابة والتابعين وطبقاتهم — وهو كتاب

(١) انظر الفهرست لابن النديم صـ١٤٥ .

الطبقات الكبرى ، والذى وصلنا سالمًا ـ لحُسن الحظ ـ وهو فى ثمانية أجزاء ، وقد خصص ابن سعد الجزأين الأول والثانى منه لسيرة رسول الله ﷺ ومغازيه والأجزاء الستة الباقية خصصها لأخبار الصحابة والتابعين حسب مواطنهم وأمصارهم ، فمن فى مكة المكرمة ، ومن فى المدينة المنورة ، ومن فى البصرة ، ومن فى الكوفة ، ثم رتب علماء كل مصر ، حسب شهرتهم وزمانهم .

وكان ابن سعد موضع ثقة المحدثين ، ومدحه كثيرون منهم ، فقد قال فيه الخطيب البغدادى : "محمد بن سعد عندنا من أهل العدالة وحديثه يدل على صدقه ، فإنه يتحرى فى كثير من رواياته " [1] .

وإذا كان ابن سعد قد تتلمذ على أشهر علماء السير والمغازى فى وقته ، وارتبط اسمه واشتهر بأنه كاتبه ، وهو الواقدى . فقد كان هو بدوره أستاذًا لكثير من العلماء ، من أشهرهم المؤرخ الكبير ، البلاذرى صاحب كتاب فتوح البلدان ، وهو من أشهر وأهم الكتب فى موضوعه ، وقد توفى ابن سعد فى بغداد سنة ٢٣٠هـ . رحمه الله رحمة واسعة .

هؤلاء العلماء الذين ذكرناهم ، هم أشهر وأكبر مؤرخى وكتاب المغازى والسير ، طوال القرنين الأول والثانى للهجرة ومطلع

---

(١) انظر تاريخ بغداد ، جـ ٥ ، صـ ٣٢١ ، وانظر كذلك ضحى الإسلام ، جـ ٢ ، صـ ٣٣٨ .

القرن الثالث ، ومن خلال ما مر نستطيع أن نستنتج النتائج الآتية : [1] .

١ـ إن أكثر وأشهر كتاب السير والمغازى الأولين ، كانوا من أهل المدينة ، وكان ذلك أمرًا طبيعيًا ، لأن أكثر أحداث السيرة ، وكل المغازى كانت فى المدينة ، والنبى ﷺ هو محور كل ذلك ، وكان من حوله من الصحابة أعرف الناس بتلك الأخبار ، لأنهم شهودها ومشتركون فيها ، وكان يروونها ويحدثون بها ويتناقلونها فى فخر واعتزاز كبيرين ، وقد تلقى التابعون منهم كل ذلك بشغف كبير وسلموا كل ذلك إلى رجال التدوين الذين حفظوه بكل تفاصيله وسلموه بدورهم للأجيال التالية حتى وصل إلينا ، وهو ثروة قلما حظيت بها أمة من الأمم عن تاريخ نبيها وسيرته ومغازيه ، فجزاهم الله خير الجزاء ، وغفر لهم ، وأسكنهم فسيح جناته .

٢ـ كانت السير والمغازى ـ فى البداية ـ جزءاً من الحديث يرويه الصحابة ، كما يروون الأحاديث ، وقد شغلت السيرة النبوية حيزاً غير قليل من الأحاديث ، والذين ألفوا فى الأحاديث لم تخل كتبهم من ذكر ما يتعلق بحياة النبى ﷺ ومغازيه وخصائصه ومناقبه ، وقد استمر هذا المنهج ، حتى بعد أن انفصلت السيرة ، عن علوم الحديث ، وأصبحت علماً مستقلاً ، له علماؤه ومؤلفوه ، وأقدم كتاب

---

(١) انظر فى ذلك . ضحى الإسلام ، جـ٢ ، صـ٣٣٨ ـ٣٣٩ .

وصل إلينا فى علم الحديث ، وهو موطأ الإمام مالك ابـــن أنـــس ــ المتوفى سنة ١٧٩هـ ــ لم يخل من ذكر طائفة كبيرة من الأحـــاديث التى تتعلق بسيرة النبى ﷺ وأوصافه وأسمائه ، وذكـــر مـــا يتعلـــق بالجهاد [١] .

واستمر هذا التقليد ، أو هذا المنهج بعد ذلك فى كتب كبار علماء المحدثين ، وفى مقدمتـــهم الإمامـــان البخـــارى ــ المتوفـــى ســـنة ٢٥٦هـ ، ومسلم بن الحجاج المتوفى سنة ٢٦١هـ . فقـــد اشـــتمل صحيحاهما على جزء كبير من مغـــازى رســـول الله ﷺ وفضائلـــه وفضائل أصحابه ومناقبهم ، وقد شغل ذلك عُشر صحيح البخارى [٢] وحذا حذو البخارى ومسلم أصحاب السنن والمسانيد فى كتبهم .

٣ــ سلك معظم المؤلفين الأوائل فى السيرة والمغـــازى مســـلك علماء الحديث ،من حيث العناية بالإسناد ، وأن بعضهم ــ محمد بـــن إسحاق ، ومحمد بن عمر الواقدى وأمثالهما ــ قد اضطـــر هـــؤلاء مراعاة لسير الحوادث وترتيبـــها فـــى نســـق واحـــد ، أن يجمعـــوا الأسانيد ، ويجمعوا بعد ذلك المتن ، من غير أن يفردوا كـــل جـــزء من المتن بسنده ، وقد قصدوا بذلك عرض الحادثـــة التاريخيـــة فـــى

---

(١) انظر السيرة النبوية للشيخ محمد أبو شهبة ، صـ٢٣ .

(٢) المرجع السابق نفسه .

إيجاز تسهيلاً على القراء . ولكن المحدثين عابوا عليهم تلك الطريقة ، وهاجموهم من أجلها ، كما ذكرنا آنفا .

وبعد فهؤلاء هم أشهر رواد علم السيرة النبوية ومغازى رسول الله ﷺ ، نقدمهم للمسلمين ليعرفوا فضلهم فى تسجيل أحداث أشرف سيرة وأعطر حياة عرفتها البشرية ، وهى سيرة وحياة خير الخلق أجمعين محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .

محتويات الكتاب

الموضـــــوع	الصفحة
* **مقـــدمـــــة**	٣
* **دوافع المسلمين للاهتمام بسيرة الرسول ﷺ**	١٣
* **بداية التأليف فى السيرة النبوية**	١٤
* **طبقات كتاب السيرة**	١٩
* **رجال الطبقة الأولى من كتاب المغازى والسير**	١٩
– أبان بن عثمان	١٩
– عروة بن الزبير	٢١
– شرحبيل بن سعد	٢٥
– وهبة بن منبه	٢٥
* **رجال الطبقة الثانية من كُتّاب المغازى والسير**	٢٨
– محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى	٣٠
– عبد الله بن أبى بكر بن محمد بن عمرو	٣٣
– عاصم بن عمرو بن قتادة	٣٦

الصفحة	المـــــوضـــــــوع
٣٧	*** رجال الطبقة الثالثة من كتاب المغازى والسير**
٣٧	– موسى بن عقبة
٣٩	– معمر بن راشد
٤٠	**– محمد بن إسحاق المطلبى**
٧٥	– الواقـــــــــدى
٨٢	– محمد بن سعد

طبع
بمطبعة وزارة الأوقاف بطرة البلد